# التَعْليم وَمَبَادئه وَقيمَه

بعد أن بينت السنة النبوية فضل التعليم وآدابه وحدوده، بينت فضل التعليم ومنزلته وما يجب له من شروط، وما ينبغي له من آداب، وغالت بالمعلم ورفعته مكاناً علياً.

يقول ( ﷺ ) : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (١) .

كما غالت بالقيم التعليمية أو التربوية الأصلية التي يحسبها الناس من ثمار هذا العصر، أو من السلع المستوردة من أوروبا وأمريكا، شأن بقية السلع المادية الأخرى.

وسنتحدث فى هذا الفصل عن أهم هذه القيم أو المبادىء التى فصلتها السنة، وعُنى بها الصحابة وسلف الأمة، عسى أن تعود للأجيال الجديدة الثقة بدينها وتراثها، ويعرفوا من حياتهم وفكرهم ما هو أصيل وما هو دخيل، وعسى أن يسيروا على ما سار عليه أوائلهم من النهوض بالعلم، وإعلاء صرح التربية على تقوى من الله ورضوان.

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى، ونفعل مثلما فعلوا

**١ - العناية بالمعلم والتنويه بقدره :**

وأولى هذه القيم الأصيلة : العناية بشأن المعلم، والإشادة بمنزلته والتنويه بمكانته، فهو يقوم مقام رسول الله - ﷺ - فى هداية الخلق إلى الحق وتعليمهم ما ينفعهم فى أولاهم وأخراهم. وقد تحدثنا عن وجوب توقير المعلم وإكرامه فى فصل « أدب التعلم ».

إن المعلم هو العنصر الفعال فى عملية التعليم، فعلى قدر ما يحمل فى رأسه من علم وفكر، وما يحمل فى قلبه من إيمان برسالته، ومحبة لتلاميذه، وما أوتى من موهبة وخبرة فى حسن طريقة التعليم، يكون نجاحه وأثره فى أبنائه وطلابه.

---

( ١ ) رواه البخارى فى فضائل القرآن ( ٥٠٢٧ ) وأبو داود فى الوتر ( ١٤٥٢ ) والترمذى فى فضائل القرآن ( ٢٩٠٩ ).

وكثيراً ما كان المعلم الصالح عوضاً عن ضعف المنهج وضعف الكتاب، وكثيراً ما كان هو المنهج والكتاب معاً.

ومن هنا كانت عناية النبى – ﷺ – بالمعلم، وتنويهه برسالته، وما لها من شأن عند الله، وعند المخلوقات كلها. فهو مشغول بمهمته، وهى مشغولة بالاستغفار له.

يقول رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته، وأهل السماوات والأرض حتى النملة فى جحرها، وحتى الحوت، ليصلون على معلمى الناس الخير» (١).

وأى فضل أعظم من أن تشتغل هذه المخلوقات المبرأة من الذنوب – فى السماء والأرض – بالصلاة والدعاء لمن يعلم الناس الخير.

ويقول عليه الصلاة والسلام: «لا حسد إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه علي هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها» (٢).

والحسد هنا معناه: الغبطة. وكيف لا يغبط الغنى الشاكر، والعالم المعلم؟ بل جاء فى الحديث أن الصدقة بتعليم العلم أفضل من الصدقة بإيتاء المال. فعن أبى هريرة أن النبى – ﷺ – قال: «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء علماً ثم يعلمه أخاه المسلم» (٣).

وروى عنه – ﷺ – حديث آخر يقول: «ما من رجل مسلم تعلم كلمة أو كلمتين أو ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً مما فرض الله عز وجل، فيتعلمهن ويعلمهن إلا دخل الجنة» (٤).

وقال أبو هريرة: فما نسيت حديثاً بعد إذ سمعتهن من رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه الترمذى برقم (٢٦٨٦) من حديث أبى أمامة وقال: حديث (حسن صحيح) غريب.

(٢) متفق عليه: اللؤلؤ والمرجان (٤٦٧).

(٣) رواه ابن ماجه فى المقدمة (٢٤٣) وفى الزوائد: إسناده ضعيف.

(٤) رواه أبو نعيم وإسناده حسن. لو صح سماع الحسن من أبى هريرة ترغيب.



opeikandl.com

ويكفى المعلم فضلاً أن له أجراً بمقدار من ينتفع بعلمه، ويهتدى به من الناس، قربوا أو بعدوا، قلوا أو كثروا.

يقول ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» (١).

ويقول: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» (٢).

وإذا كان - ﷺ - يقول: «لأن يَهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم» (٣) فكيف بمن هدى الله به أفراداً وجماعات يؤجر كلما أجروا؟

وروى أبو موسى عنه ﷺ قال: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفة أخرى إنما هى قيعان، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى، ونفعه ما بعثنى الله به، فعَلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» (٤).

والحديث يشبه علم النبوة بالغيث، بجامع الإحياء فى كل منهما، فالغيث يحيى الأرض بعد موتها، والعلم يحيى العقول والقلوب بعد جهلها.

وشأن الناس مع العلم والهدى كشأن الأرض مع الغيث والمطر.

فهناك أرض طيبة تشرب الماء فتحيا به، وتنبت الكلأ والعشب الكثير، ويشبهها من حملة العلم من جمعوا بين الرواية والدراية من العلماء الدعاة المعلمين، فهم ينتفعون وينفعون.

---

(١) رواه مسلم فى الإمارة (١٨٩٣) وأبو داود فى الأدب (٥١٢٩) والترمذى فى العلم (٢٦٧٣) - من حديث أبى مسعود البدرى - ترغيب ١٩٤.

(٢) رواه مسلم من حديث أبى هريرة فى العلم (٢٦٧٤) وأبو داود فى السنة (٤٦٠٩) والترمذى فى العلم (٢٦٧٦).

(٣) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (١٥٥٧).

(٤) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (١٤٧١).

وهناك أرض تحفظ الماء، كأنما هى أحواض مبنية لمنع الماء أن يتسرب ويذهب سدى، فهى تمسكه ليشرب منه من يشرب، أو يسقى ويزرع. ويشبهها من أهل العلم الرواة الحفظة النقلة، الذين يحملون العلم لغيرهم، وإن لم يكن لهم فيه كبير فهم أو استنباط.

وأرض ثالثة سبخة رديئة، لا تنتفع بالماء لنفسها، ولا تمسكه لغيرها. ويشبهها أولئك الذين أعرضوا عن العلم والهدى، فلا ينتفعون ولا ينفعون، ولا يحفظون ولا يفهمون، فلا هم فى أهل الرواية ولا فى أهل الدراية (١).

فالعالم العامل المعلم هو وارث النبوة حقاً -- وقد روى عن المسيح عليه السلام قوله: «من علم وعمل وعلّم فذلك يدعى عظيماً فى ملكوت السماوات».

وكان السلف إنما يسمون الرجل «ربانياً» إذا علم وعمل بعلمه، وعلم غيره إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿ **ولَكِن كُونوا ربَّانِيِّين بِما كُنتم تعلِّمون الْكِتاب وبما كنتم تدرسون** ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وناهى المعلم شرفاً وفضلاً أن رسول الله وخيرته من خلقه سمى نفسه «معلماً» فعن ابن عمر: أن رسول الله - ﷺ - مر بمجلسين فى مسجده: «أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه، قال: كلا المجلسين على خير، وأحدهما أفضل من صاحبه أما هؤلاء فيدعون الله، ويرغبون إليه، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون الفقه والعلم ويعلمون الجاهل. فهؤلاء أفضل. وإنما بُعثت معلماً، ثم جلس فيهم» (٢).

وقد ضعف سند هذا الحديث، ولكن يشهد له الحديث الصحيح الذى رواه مسلم: «إن الله لم يبعثنى معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثنى معلماً ميسراً» (٣).

---

(١) لابن القيم كلام جيد فى هذا الحديث فى كتابه. مفتاح السعادة، جـ ١ / ٦٠ فليراجع.

(٢) أخرجه الدارمى جـ ١ / ٧٤، بتحقيق السيد عبد الله هاشم يمانى، وأبو داود الطيالسى ١ / ٣٦. والبغوى ١ / ٢٧٤ - ٢٧٥، وفى إسناده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقى وهو ضعيف.

(٣) رواه مسلم فى كتاب الطلاق من صحيحه حديث ١٤٧٨، رواه أيضاً أحمد (٣ / ٣٢٨) والنسائى كما فى تفسير ابن كثير جـ ٣ / ٨٤١.

بل يشهد له القرآن ذاته، فقد وصف الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام فى أربع آيات [١] بأن من وظيفته الأساسية أن يعلم أمته الكتاب والحكمة.

## ٢ - تكافل المجتمع فى تعليم أبنائه :

وينبغى لمن علم علماً أن يبدأ بتعليمه لأقرب الناس إليه ثم من يليهم، ثم من بعدهم وهكذا، كما يبدأ فى النفقة : ابدأ بمن تعول [٢] .

وعن على رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا** ﴾ [التحريم : ٦] قال : علموا أهليكم الخير [٣] .

وقال تعالى : ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [طه : ١٣٢] .

وفى الحديث : « ما نحل والد ولده نحلاً أفضل من أدب حسن » [٤] .

ويأتى بعد حق الأهل والولد والأقارب حق الجيران، وللجار فى الإسلام حق أكيد على جاره أوصى به جبريل النبىّ ﷺ وأوصى به النبى أصحابه وما زال يوصيهم حتى ظنوا أنه سيورثه.

وبعد الأهل والولد يأتى حق الخدم وإن كانوا رقيقاً، فينبغى لسيد البيت ألا يبخل بتعليمهم ما لهم وما عليهم فقد أصبحوا جزءاً من الأسرة. إن أحسنوا فلأنفسهم ولها. وإن أساؤوا فعلى أنفسهم وعليها.

روى البخارى فى باب تعليم الرجل أمته وأهله، حديث أبى موسى أن النبى ﷺ، قال : « ثلاثة لهم أجران : رجل من أهل الكتاب آمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة، فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران ».

---

( ١ ) اثنتان منها فى سورة البقرة، وواحدة فى آل عمران، وأخرى فى الجمعة.

( ٢ ) متفق عليه من حديث حكيم بن حزام اللؤلؤ والمرجان ( ٦١٣ ) .

( ٣ ) رواه الحاكم موقوفاً، وقال : صحيح على شرطها، ووافق الذهبى ٢ / ٤٩٤ .

( ٤ ) رواه الترمذى فى البر والصلة ( ١٩٥٣ ) وقال : غريب مرسل. والحاكم وصححه، ورده الذهبى جـ ٤ / ٥٠٣ .

والأجر الأول لصاحب الأمَة إنما هو على حسن تأديبها وتعليمها، والأجر الثانى إعتاقها وتزوجها.

وقد انتهت هذه الوصايا النبوية المؤكدة - إلى جوار ما فى القرآن - بأن جعلت كل مجموعة سكنية - قرية من القرى أو حى من الأحياء - وحدة مترابطة متكافلة فى السراء والضراء، فى المجال المادى، وفى المجال المعنوى على السواء.

ففى المجال المادى أو الاقتصادى يأبى النبى - ﷺ - أن يقبل فى محيط أهل الإيمان من ينعم بالخير والرخاء لنفسه مغفلاً أمر جيرانه، فيقول: «ليس بمؤمن - وفى رواية: ليس منا - من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم» (١).

وفى المجال العقلى أو المعنوى يفرض على الجيران الذين رزقوا حظاً من العلم، ألا يدعوا جيرانهم الذين لم يتح لهم أن يستنيروا بنور العلم، دون أن يفقهوهم، ويؤدوا إليهم زكاة عملهم، كما يؤدون إليهم زكاة أموالهم.

وقد رويت فى ذلك قصة جديرة أن تسجل وتروى:

عن علقمة بن سعد بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه عن جده قال: خطب رسول الله ﷺ، ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيراً، ثم قال: «ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلمونهم، ولا يعظونهم، ولا يأمرونهم، ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقهون ولا يتعظون، والله ليعلمن قوم جيرانهم، ويفقهونهم، ويعظونهم، ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتفقهون، ويتعظون، أو لأعاجلنهم العقوبة، ثم نزل، فقال قوم: من ترونه عنى بهؤلاء؟ قال: الأشعريين هم قوم فقهاء، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسول الله عليه الصلاة والسلام فقالوا: يا رسول الله، ذكرت قوماً بخير، وذكرتنا بشر فما بالنا؟ فقال: ليعلمن

---

(١) رواه البزار والطبرانى بإسناد حسن - كما قال الهيثمى فى المجمع (٨/١٦٧) - الفيض جـ ٥/٤٠٧.

قوم جيرانهم، وليعظنهم، وليأمرنهم، ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم، ويتعظون، ويتفقهون أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا، فقالوا يا رسول الله أَنُفَطِنُ غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم، فأعادوا قولهم: أنفطن غيرنا؟ فقال ذلك أيضاً، فقالوا: أمهلنا سنة فأمهلهم سنة ليفقهوهم، ويعلموهم، ويعظوهم (فى نسخة: يفقهونهم، ويعلمونهم ويعظونهم) ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ...**﴾ [الآية ٧٨ وما بعدها من سورة المائدة] (١).

ويعلق المرحوم الدكتور مصطفى السباعى على هذا الحديث فيقول:

إنك لترى فى هذا الحديث من الحقائق ما يجدر التنبيه إليها:

١ – فالرسول عليه السلام لم يقر قوماً على الجهالة بجانب قوم متعلمين.

٢ – واعتبر بقاء الجاهلين على جهلهم وامتناع المتعلمين عن تعليمهم عصياناً لأوامر الله وشريعته.

٣ – واعتبر ذلك أيضاً (عدواناً) و (منكراً) يوجبان اللعنة والعذاب.

٤ – وأعلن الحرب والعقوبة على الفريقين حتى يبادروا إلى التعليم والتعلم.

٥ – وأعطاهم لذلك مهلة عام واحد للقضاء على آثار الجهالة فيما بينهم.

٦ – ولئن كانت الحادثة قد وردت بشأن الأشعريين العلماء وجيرانهم الجهلاء، فإن الرسول أعلن ذلك المبدأ، بصفة عامة، لا بخصوص الأشعريين وحدهم بدليل أن الأشعريين لما جاؤوا يسألونه عن سر تخصيصهم بهذا الإنكار كما فهم الناس، لم يقل لهم: أنتم المرادون بذلك، بل أعاد القول العام الذى سلف ثلاث مرات دون أن يخصصه بالأشعريين، إشعاراً بأن القضية قضية مبدأ عام غير مخصوص بفئة ولا عصر معين.

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن بكير بن معروف عن علقمة. كما قال الهيثمى فى المجمع (١/١٦٤).

### ٣ - الترحيب بالمتعلم والبشاشة له:

ومن القيم التربوية الجليلة: ما سنه الرسول - ﷺ - للمعلم من آداب ينبغي أن تراعى مع المتعلم، حتى يؤتى التعليم أحسن الثمرات.

وأول آداب المعلم مع المتعلم أن يهش له، ويبش في وجهه، ويظهر له البشر والابتهاج، ويعلن عن الترحيب به، حتى تزول عنه الوحشة، وتنحل من نفسه العقدة، عقدة الخوف من المعلم، والرهبة من العلم.

وهذا ما كان يفعله النبي - ﷺ - وأصحابه من بعده. عن قيس بن كثير، قال: قدم رجل من المدينة إلى أبي الدرداء - رضى الله عنه - وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك أي أخي؟ قال: بلغني أنك تحدث به عن النبي رسول الله ﷺ، قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا. قال: ما قدمت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: نعم.

قال: فإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم.. الحديث» (١).

وعن صفوان بن عسال المرادي - رضى الله عنه - قال: أتيت النبي - ﷺ - وهو في المسجد متكىء على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله إني جئت أطلب العلم، فقال: «مرحباً بطالب العلم! إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب» (٢).

وهكذا كان موقف صفوان ممن يجيئه يطلب منه العلم ويسمع الحديث، فهو يرحب به، ويبشره بما بشره من قبل النبي - ﷺ -.

---

(١) الحديث قد تقدم. وهذه الرواية عند أحمد في مسنده (٥/١٩٦) انظر: الفتح الرباني جـ١ ص ١٤٩ حديث ١٣ من كتاب العلم.

(٢) رواه أحمد (٤/٢٣٩) ورواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في المجمع (١/١٣١) وابن حبان كما في الاحسان (٨٥) وقال الشيخ شعيب: حديث حسن. والحاكم، وقال: صحيح الإسناد. وروى ابن ماجة نحوه باختصار. ترغيب. حديث ١٠٨.

وعن أبى سعيد أن النبى – ﷺ – قال: « سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ وأفتوهم » (١) وفى رواية « وأقنوهم » أى: أرضوهم وأعينوهم.

وكان أبو سعيد إذا جاءه طلاب العلم قال: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ (٢).

ودرج الصحابة ومن بعدهم على قبول وصيته عليه الصلاة والسلام فى الترحيب بالمتعلمين، وتكريمهم، وإعانتهم أدبياً ومادياً على الاستمرار فى طلبهم للعلم.

وكان ابن مسعود – رضى الله عنه – يقول إذا رأى الشباب يطلبون العلم: مرحباً بينابيع الحكمة، ومصابيح الظلم، خلقان الثياب، جدد القلوب، حبس البيوت، ريحان كل قبيلة (٣)!.

وكان أبو حنيفة يكثر مجالسة طلبته، ويخصهم بمزيد الإكرام، وصنوف العناية فى التكريم.

وكان البويطى يدنيهم ويقربهم، ويحضهم على الاشتغال، ويعاملهم بأشرف الأحوال (٤).

### ٤ – الرفق بالمتعلم والحنو عليه:

ومن أدب المعلم فى الإسلام أن يرفق بالمتعلم ويأخذ بيده، ويعامله معاملة الأب لولده، مقتدياً بالمعلم الأول، رسول الله ﷺ، الذى وصفه الله بقوله: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة: آية ١٢٨]. والذى وصف نفسه فقال: « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده » (٥).

---

(١) رواه ابن ماجة فى المقدمة (٢٤٧) والطيالسى والديلمى، ورمز السيوطى لحسنه فى الجامع الصغير، الفيض جـ ٤ حديث ٤٧٣٣.

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك جـ ١ / ١٨٠ وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى.

(٣) « جامع بيان العلم » جـ ١ / ١٢.

(٤) فيض القدير جـ ٤ / ١١٧.

(٥) رواه أبو داود فى الطهارة (٨) والنسائى فى الطهارة (٤٠) وابن ماجة فى الطهارة (٣١٣) وابن حبان فى الإحسان (١٤٣١) وقال الشيخ شعيب: إسناده حين.



obeikandl.com

وأهم ما يميز علاقة الأبوة بالبنوة هو الرحمة والرفق والحنو. وهذا ما ينبغى أن يحس به التلميذ من أستاذه، ويشعر بحبه له، وحرصه على نجاته وسعادته فى الأولى والآخرة، ويغرس الحب والأخوة بين طلابه، كما يغرس الأب المحبة بين أبنائه، حتى يحب بعضهم بعضاً، ويعاون بعضهم بعضاً، ويعطف بعضهم على بعض، ولا يتباغضوا ويتحاسدوا. وكذلك كان علماء السلف فى علاقاتهم بتلاميذهم.

يقول أمير المؤمنين فى الحديث، سفيان الثورى: والله لو لم يأتونى لأتيتهم فى بيوتهم، يعنى أصحاب الحديث (١).

وقال الربيع بن سليمان: قال لى الشافعى: يا ربيع لو قدرت أن أطعمك العلم لأطعمتك إياه (٢)!.

وقال الربيع: كان الشافعى – رحمه الله – يملى علينا فى صحن المسجد فلحقته الشمس، فمر بعض إخوانه، فقال: يا أبا عبد الله، فى الشمس؟! فأنشأ الشافعى يقول (٣):

أهين لهم نفسى لأكرمهم بها ... ولن تكرم النفس التى لا تهينها!

ومن دلائل هذا الرفق أن يتبنى روح التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير. وهذا ما أوصى به النبى – ﷺ، من بعثه من أصحابه معلمين وهداة وقضاة، مثل: معاذ بن جبل، وأبى موسى الأشعرى، حيث قال لهما – وقد بعثهما إلى اليمن: «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا» (٤).

قال الحافظ فى «الفتح» فى شرحه لهذا الحديث:

«وفى الحديث: الأمر بالتيسير، والرفق بالرعية، وتحبيب الإيمان إليهم، وترك الشدة، لئلا تنفر قلوبهم، ولا سيما فيمن كان قريب العهد بالإسلام، أو قارب حد التكليف من الأطفال، ليتمكن الإيمان من قلبه، ويتمرن عليه.

---

(١)، (٢)، (٣) روى هذه الآثار ابن عبد البر فى كتاب العلم جـ ١ / ١٤٢.

(٤) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (١١٣٠).

وكذلك الإنسان فى تدريب نفسه على العمل إذا صدقت إرادته لا يشدد عليها، بل يأخذها بالتدريج والتيسير، حتى إذا أنست بحالة ودامت عليها، نقلها لحال آخر، وزاد عليها أكثر من الأولى، حتى يصل إلى قدر احتمالها، ولا يكلفها بما لعلها تعجز عنه ..» (١) .

وفى حديث آخر: «علموا ويسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا، وإذا غضب أحدكم فليسكت» (٢) .

وفى آخر: «علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف» (٣) .

وذلك أن الله يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، وهو يحب الرفق فى الأمر كله ويجزى على الرفق مالا يجزى على العنف، وما دخل الرفق فى شيء إلا زانه، ولا دخل العنف فى شيء إلا شانه. وأحق الأشياء بالرفق التعليم. فعلى العلماء - كما قال الماوردى - ألا يعنفوا متعلماً، ولا يحتقروا ناشئاً، ولا يستصغروا مبتدئاً، فإن ذلك أدعى إليهم، وأعطف عليهم، وأحث على الرغبة فيما لديهم (٤) .

وكان النبى - ﷺ - أرفق الناس بالمتعلمين، وأبعدهم عن التشديد، والتعسير، والفظاظة، والغلظة، وهذا ما نوه به القرآن من أخلاقه ﷺ، ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

وكان الرجل يأتى من البادية، ويخاطبه باسمه مجرداً، ويناديه من بُعد، ويكلمه بجفوة، وأحيانا يستوقفه فى الطريق، فيسع هذا كله لحلمه وحسن

---

( ١ ) فتح البارى جـ ١٦ ص ٢٨٦ ط الحلبى .

( ٢ ) رواهْ أحمد ( ١ / ٢٣٩ ) والبخارى فى الأدب المفرد من حديث ابن عباس، ورمز السيوطي لصحته، واعترض المناوى بأنه فيه ليث بن أبى سليم. وهو مدلس، ولم يخرج له مسلم إلا مقرونا بغيره - الفيض جـ ١ / ٣٢٨ حديث ٥٤٨٠ .

( ٣ ) أخرجه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده، وابن عدى، والبيهقى فى الشعب، وفيه راو منكر الحديث، لكن الزركشى جعل من شواهده حديث أبى موسى: «يسرا ولا تعسرا» .

( ٤ ) فيض القدير جـ ٤ / ٣٢٨ .

خلقه، ويجيبه عما سأل، وأكثر مما سأل. وقد يهم أصحابه به، أو يثورون في وجهه فيهدىء من ثورتهم، ويسكن من غضبهم.

عن أبي أيوب: أن أعرابياً عرض لرسول الله - ﷺ - وهو في سفره، فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال: «يا رسول الله أو يا محمد، أخبرني بما يقربني من الجنة ويباعدني عن النار. قال: فكف النبي - ﷺ - ثم نظر في أصحابه ثم قال: لقد هدى. قال: كيف قلت؟ فأعادها. فقال النبي - ﷺ - : «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم. دع الناقة» (١).

وسيأتي مزيد من صور الرفق في الإشفاق على المخطىء.

وقد تثار هنا قضية الضرب واستخدام العصا في التعليم، وخصوصاً بالنسبة للصغار. والتربويون في عصرنا ينكرون الضرب على الإطلاق.

والواقع أن الضرب في الأصل ينبغي أن يمنع، لأنه ينافي الرفق الذي تحدثنا عنه.

وقدوتنا في هذا معلمنا الأول رسول الله ﷺ، فقد روت عنه عائشة «أنه ﷺ ما ضرب بيده شيئاً قط، لا امرأة، ولا خادماً، ولا دابة» (٢).

ولم يشرع الإسلام ضرب الصغار، إلا في موضع واحد جاء به الحديث في تعويد الأبناء الصلاة قبل البلوغ، حتى يشبوا على أدائها ورعايتها: «مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين» (٣).

وهنا نلحظ أنه لم يُجِز الضرب في سن الطفولة المبكرة. بل في سن العاشرة. ولم يجزه إلا بعد الأمر والدعوة والترغيب لمدة ثلاث سنين.

وإنما شرع الضرب في هذه الحال لإشعار الولد بجدية الأمر، وحرص الأب، وأهمية المطلوب منه. وعدم التهاون فيه.

---

(١) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (٧).

(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٢٨) وأبو داود في الأدب (٤٧٨٦) عن عائشة.

(٣) رواه أحمد (٢ / ١٨٠)، وأبو داود في الصلاة (٤٩٥)، والحاكم من حديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده وحسنه النووي في رياض الصالحين كما في الفيض (٥ / ٥٢١).



obeikandi.com

فإن بعض الآباء قد يكتفى بكلمة عابرة يقولها للولد : صل يا بنى . ثم لا يحاسبه بعد ذلك، صلى أم لم يصل؟ استجاب لأمر أبيه أم جعله دبر أذنيه؟ . .

وكما أن الأب الحازم لا يرضى أن يهمل ابنه أمره فى شؤون الدنيا، فأحرى به أن يكون هذا موقفه مع ولده فى شأن الدين، بل هو أهم وأولى .

ومنزلة المعلم منزلة الأب، فيجوز له ما يجوز للأب فى بعض الأحيان، على أن يكون هذا استثناء من القاعدة الأصلية . وأن يكون ذلك ضرورة تقدر بقدرها .

وكما قال - ﷺ - فى شأن الأزواج: «لن يضرب خياركم» فهذا يقال للآباء والمعلمين أيضاً: لن يضرب خياركم .

## ٥ - الإشفاق على المخطىء:

ويتجلى الرفق كل الرفق فى الإشفاق على المخطىء . فالخطأ لا يوجب مقابلة المخطىء بالعنف والقهر، أو التشنيع عليه أو السخرية به، فإن هذا قد يؤدى به إلى إذلال نفسيته وتحطيم شخصيته، وهذا ضرب من القتل المذموم ديناً وخلقاً أو يؤدى به إلى الإصرار على الخطأ، والتمادى فى الباطل، والتحدى للحق، دفاعاً عن نفسه، وتسويغاً للغلط، وكلا الأمرين شديد الخطر، عظيم الضرر .

وأعظم نموذج للرفق بالمتعلمين إذا أخطأوا : هو رسول الله ﷺ . فهو خير من يقدر الظروف، ويراعى الأحوال، ويسع الناس جميعاً، حتى ذلك الأعرابى الجلف الذى لم يخجل أن يبول، فى ركن من المسجد، أمام الناس، لم يغلظ عليه . وقابله بما ينبغى لمثله من الرفق واللين .

روى مسلم فى صحيحه عن أنس قال : «بينما نحن فى المسجد مع رسول الله ﷺ، إذ جاء أعرابى، فقام يبول فى المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : مه مه! (كلمة زجر) قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تزرموه، دعوه» فتركوه حتى بال . ثم إن رسول الله - ﷺ - دعاه فقال له : «إن هذه المساجد لا تصلح لشىء من هذا البول ولا القذر إنما هى لذكر الله عز وجل أو الصلاة، وقراءة القرآن» -

أو كما قال رسول الله – ﷺ – قال: فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلو من ماء فشنه عليه»[١].

وروى الترمذى عن أبى هريرة قال: «دخل أعرابى المسجد والنبى – ﷺ – جالس، فصلى، فلما فرغ قال: اللهم ارحمنى ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً فالتفت إليه النبى – ﷺ – فقال: «لقد تحجرت واسعاً» .. فلم يلبث أن بال فى المسجد فأسرع الناس، فقال النبى ﷺ: «أهريقوا عليه سجلاً من ماء – أو دلواً من ماء – ثم قال: إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»[٢].

راعى الرسول الكريم بداوة الرجل ونشأته وظروف حياته، فلم يستجب لثورة أصحابه وهياجهم عليه، وعرفهم أن علاج الأمر سهل فى مسجد لم يكن مفروشاً إلا بالحصباء، وهو صب دلو من ماء. ثم نبههم على طبيعة رسالتهم التى كلفوا حملها للناس، وهى التيسير لا التعسير.

وروى أبو أمامة: أن فتى من قريش جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لى فى الزنى؟ فأقبل القوم عليه وزجروه فقال: ﷺ: ادْنُه: فدنا فقال: أتحبه لأمك؟ قال: لا والله، جعلنى الله فداك: قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. ثم قال له مثل ذلك فى ابنته وأخته وعمته، وخالته. وفى كل ذلك يقول: أتحبه هكذا؟ فيقول: لا والله، جعلنى الله فداك! فيقول ﷺ: ولا الناس يحبونه. ثم وضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه» فلم يكن بعد ذلك يلتفت إلى شىء[٣].

فهذا شاب عارم الشهوة، ثائر الغريزة، صريح فى التعبير عن نوازعه إلى حد الإغراب والإثارة. ورغم غرابة طلبه الذى أثار الجالسين عليه. لم يكن منه ﷺ إلا أن لقيه بهذا الرفق العجيب والحوار الهادىء، الذى يحمل المنطق المقنع والروح المحبب، ثم أنهى هذا الحوار بلمسة حنان على صدر الفتى المتوقد، ومع اللمسة

---

(١) الحديث رقم ٢٨٥ فى صحيحه باب – ٣ – كتاب الطهارة جـ ١ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.

(٢) رواه الترمذى فى الطهارة (١٤٧) عن أبى هريرة وقال: حديث حسن.

(٣) رواه أحمد (٥/٢٥٦) والطبرانى فى الكبير وقال الهيثمى رجاله رجال الصحيح المجمع (١/١٢٩).

دعوات خالصة لله تعالى أن يغفر للفتى ويطهره ويحصنه، فإذا هو يخرج من مجلس الرسول الكريم، كأنّما كان هذا اللقاء لنار شهوته، برداً وسلاماً.

ولا تظن أيها القارىء الكريم أن هذا الأثر الذى تركه موقف النبى ﷺ، فى نفس الشاب من هدوء نفس وإعراض عن الزنى الذى كان يتوق إليه ويرغب فيه. كان معجزة خارقة للنبى عليه الصلاة والسلام، ولا تتكرر لغيره إلا من باب الكرامات، وخوارق العادات، كلا فإن أى معلم ربانى الوجهة، نبوى الطريقة، يقتدى برسول الله ﷺ فى سلوكه، قولاً وعملاً وروحاً، سيجد – بتوفيق الله تعالى – نفس الأثر، أو قريباً منه، وفقاً لسنة الله تعالى.

وأولى المخطئين بالإشفاق من كان خطؤه عن جهل أو غفلة، أو ضعف. وبخاصة من أخطأ لأول مرة، مثل الأعرابى، والشاب القرشى السابق ذكرهما.

ولكن قارىء السنة يجده عليه الصلاة والسلام يسع بحلمه، ورفقه من أصرّ على الخطأ والمعصية نتيجة ضعف إرادته، وغلبة عادته، استبقاء له فى دائرة الإيمان، وفى حظيرة المؤمنين، وتنبيهاً له بحسن المعاملة على سوء صنيعه، عسى أن يستيقظ ضميره فيتوب من زلته، وينهض من سقطته.

وهل نجد مثلاً فى هذا المجال أوضح من قصة ذلك الصحابى المعروف الذى اشتهر باسمه والذى ولع بالخمر إلى حد الإدمان، ولم يردعه أن ضرُب فيها غير مرة، حتى قال بعض الصحابة يوماً، وقد ضاق صدرهُ بكثرة ما قبض عليه فى هذه الجريمة: ما له لعنهُ الله؟ ما أكثر ما يؤتى به! وهنا تتجلى الرحمة المحمدية، والرفق النبوى الرفيع فيقول: «لا تكن عوناً للشيطان على أخيك»، أو: «لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم». وفى رواية: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله» (١).

## تنبيه المخطىء على خطئه:

وإياك أن تحسب أخى القارئ أن الرفق بالمخطىء يعنى السكوت على خطئه والإغضاء عنه، وفى هذا إقرار للخطأ، بل تشجيع وإشاعة له.

كلا فالرفق بالمخطىء والإشفاق عليه لا ينافى تنبيهه على خطئه، بل زجره عنه بالرفق المناسب لظروف المخطىء ومدى خطئه ونوعه ودوافعه، وإرشاده إلى

---

(١) انظر: فتح البارى – كتاب الحدود (٦٧٨٠).

الصواب والوضع الصحيح بالتى هى أحسن، ولهذا رأيناه ﷺ بعد أن ترك الأعرابى يبول فى المسجد دون أن تُقطع عليه بولته، وبعد أن أمر بصب دلو من ماء عليه. وبعد أن قال لأصحابه ما قال: «إنما بعثتم ميسرين» .. دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هى لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن»، وفى هذا - كما يقول الإمام النووى - الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير إيذاء.

وكذلك حين دعا الأعرابى فقال: اللهم ارحمنى ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً، نبهه النبى ﷺ برفق إلى أنه ضيق واسعاً، حين قصر طلب الرحمة له وللرسول دون غيرهما، مع أن رحمته تعالى وسعت كل شيء. ولهذا قال له: لقد تحجرت واسعاً!!

وقد يكون هذا التنبيه أو الإرشاد أو الزجر من باب التعريض لا التصريح، وبالتعميم لا بالتخصيص، ويدرك المخطىء حين يسمع اللفظ العام أنه المقصود مثل: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا» .. مثل ما ذكروه فى قصة من هاجر من مكة إلى المدينة من أجل امرأة يهواها وأطلق عليه بعض الصحابة «مهاجر أم قيس» وقالوا: إنه كان سبباً فى ورود الحديث المشهور «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه» (١).

وطوراً يكون التنبيه على الخطأ غاية فى الرفق، ورعاية الشعور كما فى قصة أبى بكرة حين دخل المسجد، والنبى ﷺ فى الركوع، فكبر من أول المسجد وركع، وظل يمشى راكعاً حتى وصل الصف. وكان ينبغى ألا يكبر ويدخل فى الصلاة حتى يصل إلى الصف ولا يصلى منفرداً خلف الصف،فلما بلغ رسول الله ﷺ فعله قال له هذه الكلمة الطيبة: «زادك الله حرصاً ولا تعد» (٢).

---

(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب اللؤلؤ والمرجان (١٢٤٥).

(٢) رواه البخارى فى الآذان (٧٨٣)، وأحمد (٥ / ٣٩)، وأبو داود فى الصلاة (٦٨٣)، والنسائى فى الإمامة (٨٧١).

فهذه الجملة الموجزة تتضمن دعاءً ونهياً. ففى الدعاء تقدير لنبل الدافع الذى دفع الصحابى الكريم إلى ما فعل، وهو الحرص على ألا تفوته الركعة فى الجماعة مع النبى عليه السلام. وفى النهى إشعار له بخطئه لئلا يتكرر منه مرة أخرى دون أن يقول له: قد أخطأت.

وعن معاوية بن الحكم السلمى قال: بينما أنا أصلى مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله ؛ فرمانى القوم بأبصارهم! فقلت: واثكل أمّاه ما شأنكم تنظرون إلىّ؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم.. فلما رأيتهم يصمتوننى، (أى: يسكتوننى) لكنى سكت. فلما صلى رسول الله ﷺ. فبأبى هو وأمى! ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرنى، (أى: ما نهرنى)، ولا ضربنى ولا شتمنى قال: إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس. إنما هى التسبيح والتكبير، وقراءة القرآن. أو كما قال رسول الله ﷺ، قلت يا رسول الله: إنى حديث عهدٍ به وقد جاء الله بالإسلام. وإن منا رجالاً يأتون الكهان؟ قال: فلا تأتهم. قلت: ومنا رجال يتطيرون (يتشاءمون) قال: ذاك شىء يجدونه فى صدورهم، فلا يصدنهم [1]، (أى: عن وجهتهم).

فهذا العربى الغفل، الحديث العهد بالإسلام، يدخل الصلاة ويتصرف فيها كأنما هو فى مجلس من مجالس القوم: يشمت العاطس، ويكلم من حوله، ويردّ على من أنكر عليه، والصحابة يرون هذا منه وينبهونه بنظرات أعينهم وحركات أيديهم، وهو لا ينتبه إلى خطئه حتى فرغ من صلاته، وحكوا للنبى ﷺ ما صنعه فى صلاته. وهنا تتجلى روح المعلم الحق، وأسلوبه الرفيق الرقيق فى معالجة الخطأ وتنبيه المخطئين، وتعليم المبتدئين. وهو ما لحظه هذا الرجل الأمى البسيط بنور فطرته، وعبر عنه بعباراته القوية البليغة: بأبى هو وأمى. ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرنى ولا ضربنى ولا شتمنى.

كل ما فعله عليه الصلاة والسلام: أنه نبهه على خطئه دون أن يقول له: أخطأت وأسأت، ولم تعرف للصلاة قدرها، ونحو ذلك من العبارات القاسية. إنما

---

(١) رواه مسلم فى المساجد ومواضع الصلاة حديث (٥٣٧).



obeikandi.com

بين له حقيقة الصلاة وما لا يليق من القول أن يدخل فيها: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس. إنما هى التسبيح والتكبير وقراءة القرآن».

وكذلك يجب أن يكون المعلمون الصادقون.

وفى قصة تخيير نسائه ﷺ التى نزل بها القرآن: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [سورة الأحزاب ٢٨، ٢٩]. أقبل النبى ﷺ على نسائه يعرض عليهن ما أمره الله به من التخيير، وبدأ بعائشة رضى الله عنها، فعرض عليها أن تختار أحد أمرين: إما الله ورسوله والدار الآخرة، على ما فى ذلك من الكفاف، وحياة التقشف والزهد، وخشونة العيش، وإما الدنيا وزينتها فلها حق المتعة والسراح الجميل، وطلب إليها أن تتريث فى الأمر وألا تقطع فيه برأى حق تشاور أبويها. وهنا قالت عائشة فى حسم ويقين: أفيك أستأمر أبوىّ يا رسول الله؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة. ثم بدت الطبيعة البشرية النسوية فغلبت على عائشة. فطلبت منه عليه الصلاة والسلام ألا يخبر أحداً من نسائه بما اختارته حتى لا يؤثر موقفها فى موقفهن، كأنما تريد لهن جميعاً أن يخترن الدنيا وزينتها وتنفرد هى بهذه المزية، ويخلو لها وجهه ﷺ. وهنا يتجلى المعنى التربوى الكبير فى موقفه عليه الصلاة والسلام، حين قال لها: «يا عائشة إن الله لم يبعثنى معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثنى معلماً ميسراً» (١).

فلم يُقر الصديقة بنت الصديق على نزعتها تلك، وبين لها وظيفته التى لا يتركها ولا تتركه، وهى: أنه معلم، ومعلم ميسر، غير معنت ولا متعنت.

قال العلامة المناوى: فيه إشعار بأن من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المعلم المتعلم عن سوء الأخلاق باللطف، والتعريض ما أمكن من غير تصريح، وبطريق الرحمة من غير توبيخ. فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويروث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار. (ذكره الغزالى) (٢).

---

(١) أخرجه مسلم فى الطلاق (١٤٧٨).

(٢) نقله المناوى فى فيض القدير.

غير أننا نجد النبى ﷺ، يزجر عائشة نفسها على خطأ ارتكبته فى موقف آخر، وكان الزجر بطريقة فيها لون من الشدة يغاير ما ذكرناه سابقاً. وذلك أنها اعتدت على حق ضرة من ضرائرها من أمهات المؤمنين، فقد قالت للرسول ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا. قال بعض الرواة تعنى: قصيرة فقال: «يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مزجت بماءالبحر لمزجته» (١).

يعنى: أن هذه الكلمة أو هذه الإشارة التى لم تصل إلى التصريح الكامل جديرة بأن تعكر بحراً، على عمقه وسعته، هذا مع أنها أحب نسائه إليه.

وأحياناً يشتد النكير ويعلو الصوت بالتنديد، فى غير إسفاف ولا إسراف، وذلك حين لا يكون الخطأ مجرد خطأ فى سلوك جزئى فردى، بل يمثل بداية انحراف فى الاتجاه، وفى المنهج، كقوله لعمر حين رأى معه بعض كتب أهل الكتاب المحرّفة -: «أمتهوكون - أى: أمتحيرون - فيها يا ابن الخطاب، والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى» (٢). ونحو ذلك لما شكا إليه بعض أصحابه أنه يتأخر عن الجماعة لما يجد من تطويل الإمام بهم، إلى حد جعله يهرب من الصلاة فى الجماعة. قال أبو مسعود الأنصارى راوى هذا الحديث: فما رأيت النبى - ﷺ - فى موعظة أشد غضباً من يومئذ. فقال: «يا أيها الناس، إنكم منفرون! فمن صلى بالناس، فليخفف، فإن فيهم المريض والضعيف وذا الحاجة» (٣).

وتشتد اللهجة بالإنكار أكثر وأكثر حينما يتمثل هذا الانحراف فى جماعة أو كتلة كقوله - حينما تنادى الأوس: ياللأوس: وتنادى الخزرج: ياللخزرج!: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟» (٤).

وقوله للثلاثة الذين قرر أحدهم قيام الليل كله، والثانى صيام الدهر كله،

---

(١) رواه أبو داود فى الأدب (٤٨٧٥)، والترمذى فى صفة القيامة (٢٥٠٤) وقال: حسن صحيح - ترغيب ٤٠٩٢.

(٢) سيأتى تخريجه فى الفصل الخامس.

(٣) متفق عليه من حديث أبى مسعود الأنصارى اللؤلؤ والمرجان (٢٦٧).

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره عن ابن إسحاق.

والثالث اعتزال النساء أبداً: «أما إنى أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكنى أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[١].

ومثل ذلك ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أنه ﷺ سمع قوماً يتمارون فى القرآن، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه»[٢].

وفى بعض الروايات: أن تنازعهم كان فى القدر.

وفى بعضها: أنه خرج عليهم كأنما يفقأ فى وجهه حب الرمان[٣]، أى: من شدة الغضب، وأنما أغضبه التدافع والمراء فى القرآن، وضرب آياته بعضها ببعض، فإن هذا بداية فتنة فى الفكر والعقيدة لا يعلمها إلا الله، لأن القرآن أنزله الله ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويجمعهم على كلمة سواء، فإذا أصبح هو مجالاً للتنازع والمراء والاختلاف، فقد أصبح محتاجاً إلى حاكم آخر يحسم النزاع، ويصفى الخلاف. وهذا مبتدأ تمزق الأمم، وشيوع الانحرافات والأهواء والبدع. وهذا ما أهلك الأمم من قبل، وهو خليق أن يهلك هذه الأمة من بعد؛ ومن ثم كان غضبه وزجره ﷺ.

## ٦ - تشجيع المحسن والثناء عليه:

وإذا كان من الأسس النافعة فى التعليم والتربية تسديد المخطىء والأخذ بيده فى رفق، فإن مما يكملها تشجيع من أصاب وأحسن، والإشادة بإحسانه، والثناء عليه، ليزداد نشاطاً فى الخير، وإقبالاً على العلم والعمل، ويضيف إحساناً إلى إحسان وهكذا كان ﷺ.

كان أبو موسى الأشعرى حسن التلاوة للقرآن، فقال له النبى - ﷺ: - «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»[٤]، يعنى بآل داود: داود نفسه.

---

(١) رواه البخارى فى النكاح (٥٠٦٣).

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢ / ١٨٥) وابن ماجه فى سننه فى المقدمة (٨٥).

(٣) انظر: الحديث ٤٢ من كتاب القدر - الفتح الربانى جـ ١ / ١٤٢ وفيه: قال البوصيرى فى زوائد ابن ماجة. هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات.

(٤) متفق عليه من حديث أبى موسى اللؤلؤ والمرجان (٤٥٦) أنظر: رياض الصالحين (١٠٠٣).

وقال له يوماً: «لو رأيتنى وأنا أستمع لقراءتك البارحة»! (أى: لسرك ذلك)، فقال أبو موسى: يا رسول الله، لو أعلم أنك تسمعه لحبّرته لك تحبيراً [١].

وعن أبىّ بن كعب قال: قال رسول الله - ﷺ - : «يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) (يعنى الآية المعروفة بآية الكرسى) فضرب فى صدرى وقال: «ليهنك العلم أبا المنذر» [٢].

ومن قرأ كتاب المناقب، أو الفضائل فى صحيح البخارى، أو صحيح مسلم، أو غيرهما من كتب الحديث يجد نصوصاً تحمل الثناء على واحد، أو جماعة من أصحاب النبى ﷺ، ولم يكن يلقى النبى ﷺ ما يقوله من كلمات الثناء اعتباطاً، أو مجاملة، بل كانت تقديراً لمن يستحق التقدير، وتكريماً لمن هو أهل للتكريم، كما أثنى على أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم من كبار الصحابة فى مواقف شتى.

وقال لسعد بن أبى وقاص يوم أحد: «ارم فداك أبى وأمى» [٣]!

وقدم أهل اليمن على رسول الله - ﷺ - فقالوا - : «ابعث معنا رجلاً يعلمنا السنة والإسلام. قال فأخذ بيد أبى عبيدة، فقال: «هذا أمين هذه الأمة» [٤].

وقال - ﷺ - : «خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد (يعنى ابن مسعود)، ومعاذ بن جبل، وأبى بن كعب، وسالم مولى أبى حذيفة [٥]. وأثنى على أبى هريرة لما سأله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة [٦]؟ وفى حديث اشتهر عنه، ذكر عدداً من أصحابه كل بأبرز ما يميزه من الفضائل، فقال:

---

(١) رواه مسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٩٣).

(٢) رواه مسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٨١٠).

(٣) متفق عليه من حديث على اللؤلؤ والمرجان (١٥٦١).

(٤) رواه مسلم فى فضائل الصحابة (٢٤١٩).

(٥) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو اللؤلؤ والمرجان (١٦٠٠).

(٦) رواه البخارى فى العلم (٩٩)، وأحمد (٢/٣٧٣).

«أرحم أمتى بأمتى أبو بكر .. وأشدهم فى الله عمر، وفيه: أن أقضاهم على، وأفرضهم، (أى: أعلمهم بالفرائض وهى المواريث) زيد، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل [1] .. الخ».

وهكذا كان ﷺ ينوه بأقدار الفضلاء من أصحابه، وبذوى المواهب المتميزة منهم، ليعرف الناس ذلك لهم، ويأخذوا عنهم وينتفعوا بهم. كما ذم النبى ﷺ، فى حديث له صنفاً من الأئمة: «الذى إن أحسنت لم يشكر وإن أسأت لم يغفر» [2] وإذا كان هذا مذموماً فى الرؤساء، فهو مذموم كذلك فى المعلمين.

وكذلك ينبغى لكل معلم راشد أن يشيد بالمواقف الحسنة لتلاميذه - وينوّه بكل من له موهبة أو قدرة، ولينمى فيه الطموح بالحق، والتفوق بالعدل، ولينبه الآخرين على فضلهم، فينافسوهم فى الخير إن استطاعوا، أو يعترفوا لهم بالفضل إن عجزوا. وإن كلمة تقدير وتكريم من أستاذ له قدر فى شأن أحد تلاميذه، قد تصنع منه - بتوفيق الله تعالى - نابغة من نوابغ العلم.

ومن طلاب العلم من أوتى الموهبة والذكاء والقدرة على الفهم والتحليل والتحصيل، ولكن تنقصه الثقة بالنفس والأمل فى الغد، فما أحوجه إلى كلمة من أستاذ مرشد تنفعه وترفعه.

ذكر يوسف بن يعقوب بن الماجشون: أنه كان هو وأخ له وابن عم - يطلبون العلم عند ابن شهاب الزهرى فقال لهم: لا تحقروا أنفُسكم لحداثة أسنانكم، فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل، دعا الفتيان فاستشارهم، يبتغى حِدة عقولهم [3] .

## ٧ - التدرج فى التعليم:

ومن المبادىء التى حرص عليها الإسلام فى جميع المجالات - ومجالات التربية خاصة - ، وجاءت بها السنة القولية والعملية: التدرج فى التعليم.

---

(١) رواه الترمذى فى المناقب (٣٧٩٣) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه الطبرانى عن فضالة بن عبيد بإسناد لا بأس به، كما قال الهيثمى فى المجمع (١٦٨/١) الترغيب (٣٧٠٥).

(٣) «جامع بيان العلم» جـ ١٠٢/١ .

وهذا واضح فى جانب التكليف والتشريع. فقد كان التكليف فى العهد المكى مقصوراً على أحكام العقيدة ومكارم الأخلاق. ثم فرضت الصلاة قبيل الهجرة. وفرضت فى أول الأمر ركعتين ثم أقرت فى السفر وزيدت فى الحضر.

وفى المدينة فرضت بقية الفرائض، كما حرمت الخمر والربا وغيرهما. كل ذلك بمنهج تدريجى حكيم يسهل على المكلفين امتثال الأمر واجتناب النهى فى غير حرج ولا إعنات.

وهكذا كان الرسول الكريم يعلم أصحابه: أن يأخذوا بسنة «التدرج» التى هى سنة الله فى الحياة والوجود كله.

عن ابن عباس رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: «إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله. فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة. فإن أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم. الحديث» (١) فقوله: «تأتى قوماً من أهل الكتاب» كالتوطئة للوصية، لتستجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم فى الجملة. فلا تكون مخاطبتهم كمخاطبته الجهال من عبدة الأوثان (٢).

ثم أمره أن يبدأ دعوته بأمر العقيدة، فيدعوهم إلى الشهادتين، لأنهما باب الدخول فى الإسلام، وأصل الدين كله، ولا تقبل عبادة ولا عمل بغير الإقرار بهما والإذعان لهما.

فإن هم أطاعوا لذلك ورضوا بالله رباً، وبمحمد رسولاً، أعلمهم بالفريضة اليومية والعبادة العملية الأولى، التى هى الرباط الدائم بين الإنسان وربه، والفيصل الفارق بين المسلم والكافر وهى الصلاة عمود الإسلام.

فإن هم عرفوا ذلك واستجابوا له، أعلمهم بالفريضة العملية الثانية – وهى

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس اللؤلؤ والمرجان (١١).

(٢) انظر: المصدر السابق.

شقيقة الصلاة فى القرآن والسنة، والرباط الاجتماعى والاقتصادى بين المسلمين بعضهم وبعض، وهى الزكاة، قنطرة الإسلام.

وهكذا ينبغى أن تكون الدعوة ويكون التعليم.

والتدرج ذو شقين: شق يتعلق بالكم، وشق يتعلق بالكيف.

فالأول يعنى: أن يعطى المتعلم من العلم المقدار الملائم له، ولا يكثّر عليه الأستاذ، ويحمله ما لا يطيق، فينوء به، ويضيعه كله، فهو يريد أن يعطيه الكثير دفعة واحدة، فيضيع بذلك الكثير والقليل. والعلم متين كالدين، فيجب أن يوغل فيه برفق، فإن المُنْبَتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

وفى هذا أوصى الزهرى تلميذه يونس بن زيد فقال: يا يونس لا تكابر العلم فإن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه. ولكن خذه مع الأيام والليالى. ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام **أخذه جملة ذهب عنه جملة!** ولكن الشىء بعد الشىء مع الأيام والليالى (١).

والشىء الثانى فى التدرج: هو ما يتعلق بالكيف والنوع. على أن يبدأ الأستاذ مع طلابه بالجلى من العلم قبل الخفى، والبسيط قبل المركب، وبالخفيف قبل الثقيل، والجزئى قبل الكلى، وبالعملى قبل النظرى.

ومن الحكم المأثورة: الربانى: الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره. والمراد بصغار العلم: ما وضح من مسائله، وبكباره: ما دق منها. وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده (٢).

والمهم ألا يبدأ المعلم تلاميذه بدقائق العلم، وعويص مسائله، فيغرقهم فى بحر عميق لا يستطيعون النجاة منه. بل يبدؤهم بالأسهل والأيسر، لأن الشىء إذا كان فى ابتدائه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه، وتلقاه بانبساط، وكانت عاقبته غالباً الازدياد منه بخلاف ضده (٣).

---

(١) «جامع بيان العلم» جـ ١ / ١٢٥.

(٢) «الفتح» جـ ١ / ١٧١.

(٣) نفسه / ١٧٣.

وقد كان كثير من كبار العلماء يؤلفون كتبهم متدرجة وفق مراتب الترقى فى الطلب. فالغزالى - مثلاً - يؤلف فى فقه الشافعية: الوجيز ثم الوسيط، ثم المبسوط. وابن قدامة يؤلف فى فقه الحنابلة على الترتيب التصاعدى: العمدة ثم المقنع، ثم الكافى، ثم المغنى.

وهكذا كانوا يكتبون لكل مرحلة فى الطلب ما يليق بها، فالمبتدئ غير المتوسط غير المنتهى.

وكذلك ينبغى أن تراعى مراحل العمر. فيعطى للصبى غير ما يعطى للمراهق، غير ما يعطى للناضج.

وهذا ما يحرص عليه رجال التربية اليوم فى وضع المناهج، وفى تأليف الكتب.

## ٨ - رعاية الفروق الفردية:

ومن آداب التعليم ومبادئه وقيمه الأصيلة التى جاءت بها السنة: مراعاة الفروق بين الناس بعضهم وبعض: الفروق الفردية أو البيئية أو النوعية.

فليس كل ما يصلح لشخص يصلح لآخر. وليس كل ما يصلح لبيئة يصلح لأخرى، وليس كل ما يصلح لفئة أو جنس يصلح لغيرها. وليس كل ما يصلح لزمن يصلح لسائر الأزمنة والعصور.

والمعلم الموفق هو الذى يعطى كل إنسان - فرداً أو جماعة - من العلم ما يلائمه ويصلح له، وبالقدر الذى يصلح به، وفى الوقت الذى ينتفع به.

وكان معلم البشرية الأول خير المراعين لهذا الجانب، نظراً وتطبيقاً.

ومن الأدلة على اعتبار هذه الفروق ومراعاتها بالفعل عدة أمور:

١ - اختلاف وصاياه - ﷺ - باختلاف الأشخاص الذين طلبوا منه الوصية.

٢ - اختلاف أجوبته وفتاواه عن السؤال الواحد باختلاف أحوال السائلين.

٣ - اختلاف مواقفه وسلوكه باختلاف الأشخاص الذين يتعامل معهم.



obeikandl.com

٤ - اختلاف أوامره وتكليفاته باختلاف من يكلفهم من الأشخاص واختلاف قدراتهم.

٥ - قبوله من بعض الأفراد موقفاً أو سلوكاً لا يقبله من غيره لاختلاف الظروف.

وفى البند الأول: نجد أناساً عديدين سألوه - ﷺ - أن يوصيهم إما مطلقاً، وإما مقيداً بما يقربهم إلى الجنة ويبعدهم عن النار، أو نحو ذلك من العبارات الجامعة ... فأوصاهم بوصايا مختلفة:

فبعضهم قال له: « تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصل الرحم ».

وبعضهم قال له: « اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن ».

وبعضهم قال له: « قل: آمنت بالله ثم استقم ».

وبعضهم قال له: « لا تغضب » ولم يزد على ذلك.

وهكذا كان يراعى - ﷺ - حال المستوصى، ويعطى كل واحد ما يراه أحوج إليه. فشأنه مع السائلين كالطبيب مع المرضى، يعطى كل واحد من الدواء ما يناسبه.

وفى البند الثانى: نجده - ﷺ - يسأل: « أى العمل أفضل؟ »، أو: « أى الإسلام أفضل؟ فنراه يجيب هذا بغير ما يجيب به ذاك.

فعن عبد الله بن مسعود: سألت رسول الله ﷺ، أى الأعمال أحب إلى الله فقال الصلاة على وقتها. قلت: ثم أى؟ قال: بر الوالدين. قلت: ثم أى؟ قال: الجهاد فى سبيل الله [١].

وعن رجل من خثعم قال: أتيت النبى ﷺ وهو فى نفر من أصحابه فقلت: أنت الذى تزعم أنك رسول الله؟ قال: « نعم ». قال: قلت: يا رسول الله: أى الأعمال أحب إلى الله؟ قال: « الإيمان بالله ». قلت: يارسول الله ثم مه؟ (أى: ثم

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود اللؤلؤ والمرجان (٥٢).

ماذا؟ ) قال: « ثم صلة الرحم ». قال: قلت يا رسول الله، ثم مه؟ قال: « ثم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ... الحديث.

ولا تفسير لهذا الاختلاف فى الجواب مع اتحاد السؤال، إلا مراعاة أحوال السائلين، وما بينهم من فروق يجب اعتبارها.

ولما سأله النساء عن الجهاد قال: « لكن أفضل الجهاد حج مبرور » (١).

وفى صحيح البخارى عن أبى موسى قال: قالوا يا رسول الله أى الإسلام أفضل؟ قال: « من سلم المسلمون من لسانه ويده » (٢).

وفيه عن عبد الله بن عمر: أن رجلاً سأل النبى ﷺ: أى الإسلام خير؟ قال: « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » (٣).

والسؤال الثانى: كالأول وإن اختلفت الألفاظ، لكن الجواب ليس واحداً. كما قلنا من اختلاف أحوال السائلين، أو السامعين، فالجواب فى السؤال الأول وجه العناية إلى تحذير من خشى منه الإيذاء بيد أو لسان، فأرشد إلى كفهما عن الأذى وفى الثانى كان الاهتمام بترغيب من رجا فيه النفع العام بالفعل والقول، فأرشده إليهما وخص الخصلتين المذكورتين بالتنويه لمسيس الحاجة إليهما فى ذلك الوقت. لما كانوا فيه من الجهد والفاقة ولمصلحة تأليف القلوب (٤).

وأوضح من ذلك اختلاف الجواب عن السؤال الواحد فى قضية واحدة فى مجلس واحد - روى الإمام أحمد فى مسنده من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كنا عند النبى ﷺ - فجاء شاب - فقال: يا رسول الله أقبل وأنا صائم؟ فقال: لا. فجاء شيخ فقال: يا رسول الله، أقبل وأنا صائم؟ قال: نعم، فنظر بعضنا إلى بعض! فقال رسول الله ﷺ: قد علمت نظر بعضكم إلى بعض. إن الشيخ يملك نفسه (٥).

---

(١) رواه البخارى فى الجهاد والسير (٢٧٨٤).

(٢) متفق عليه من حديث أبى موسى اللؤلؤ والمرجان (٢٥).

(٣) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر اللؤلؤ والمرجان (٢٤).

(٤) الفتح جـ ١ / ٦٢.

(٥) حديث (٧٠٥٤) جـ ١٢. قال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» مع أن فيه ابن لهيعة وقد وثقه الشيخ رحمه الله ويشهد له حديث أبى هريرة عند أبى داود فى نفس المعنى.

وهذا من الأدلة الشرعية لما قرره العلماء من تغير الفتوى بتغير الأحوال.

وفى البند الثالث: نجده - ﷺ - يعامل الأعراب القادمين من البادية بما لا يعامل به أصحابه الذين ربوا فى حجر النبوة، ويغتفر لأولئك ما لا يغتفر لهؤلاء، ويتألف قلوب «مسلمة الفتح»، وزعماء القبائل بما لا يصنع مثله مع المهاجرين والأنصار، ويعامل أصحابه أيضاً على منازلهم وطبائعهم فهو يغطى فخذيه أو ساقيه، ويسوى ثيابه عند دخول عثمان عليه، ولم يفعل ذلك مع أبى بكر وعمر، مراعياً طبع الحياء فى عثمان قائلا: «ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة؟» وقد لاحظت عائشة ذلك: فقالت: يا رسول الله ما لى لم أرك فزعت لأبى بكر وعمر كما فزعت لعثمان؟ فقال: «إن عثمان رجل حيى، وإنى خشيت إن أذنت له على تلك الحال ألا يبلغ إلىّ فى حاجته» [١]. وإذا دخل عليه كريم قوم أكرمه، وإذا دخل عليه سفيه أو شرير داراه بطلاقة الوجه أو بكلمة طيبة - دون مداهنة أو مدح بالباطل - تألفاً له، واتقاء لشره.

ويحدث معاذاً ببعض المبشرات فيمن مات على التوحيد، ولا يأذن له بأن يبشر بها جمهور الناس مخافة أن يتكلوا [٢].

والبند الرابع: نجده ﷺ يكلف كل إنسان، بما يقدر عليه، وما يليق به، وما يلائم حاله.

ففى حدث كحدث الهجرة إلى المدينة والاختفاء إلى غار حراء، نراه - عليه الصلاة والسلام - يكلف عدداً من الأشخاص بعدد من المهمات المتنوعة، كل فيما يناسبه، فأبو بكر كلف رفقته بعد تكليفه إعداد الرواحل، وعلى كلف المبيت فى مكانه - ﷺ - احتمالاً لأى خطر. وأسماء بنت أبى بكر كلفت ما يليق بها من حمل الطعام والأخبار إلى رفيقى الغار، وعبد الله بن أبى بكر، وعامر بن فهيرة كل منهما له دوره. وهكذا نجده ﷺ، يولى خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص على بعض السرايا الحربية، على حين كلف حسان بن ثابت بأن

---

(١) رواه مسلم فى فضائل الصحابة عن سعيد بن العاص: أى عائشة وعثمان - حدثاه. حديث (٢٤٠٢).

(٢) رواه البخارى فى كتاب العلم (١٢٨).

يدافع عنه - أمام هجاء الشعراء من قريش - بسلاح الشعر الذى هو أشد عليهم من وقع الحسام فى غبش الظلام، ولم يجب أبا ذر إلى طلبه حين سأله أن يوليه، لما يعرف من صرامته وحدة طبعه.

وفى البند الخامس: نجده ﷺ يقبل من بعض الأعراب الاقتصار على أداء الفرائض، حتى قال له بعضهم: «والله لا أزيد على هذا ولا أنقص» فقال: «أفلح إن صدق». وفى حديث: «من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا». على حين لم يقل ذلك لغيره من أصحابه المهاجرين والأنصار.

وهذا هو موقف المربى الحق، والمعلم المرشد من طلابه وأصحابه أن يراعى ظروفهم، وقدراتهم العامة، والخاصة وأحوال كل فئة منهم، بل كل واحد منهم ليعالجه بما يناسبه، فلا يكلم الصغير بما يكلم به الكبير، ولا يخاطب الفتاة بما يخاطب به الفتى، ولا يعطى العوام ما يعطيه للخواص، ولا يكلف الذكى ما يكلفه الغبى ولا يأمر البدوى بما يأمر به الحضرى، بل يعطى لكل متعلم على قدره وقدرته.

ومن العجز بل الإثم أن يبث المعلم كل ما عنده لكل من يجده دون تمييز بين مَن يفهم ومَن لا يفهم، وبين من ينتفع بما يسمع ومن يتضرر به.

وفى الحديث: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع» [(١)].

وهذا ما حذر منه علماء الصحابة رضوان الله عليهم.

يقول على: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله [(٢)] ؟!

ويقول ابن مسعود: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة [(٣)].

---

(١) رواه مسلم فى مقدمة الصحيح (٥) من حديث أبى هريرة، وأبو داود فى الأدب (٤٩٩٢).

(٢) رواه البخارى فى الصحيح - كتاب العلم (١٢٧) - باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهة ألا يفهموا.

(٣) رواه مسلم فى المقدمة (٥).

وليس هذا من كتمان العلم، بل من حسن إنفاقه في محله، وإعطائه لمن هو أهله، ولكل مقام مقال، ولكل علم رجال. ومن الحكم المأثورة: لا تعطوا الحكمة لغير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.

وقد ذكر الغزالي في «إحيائه»: أن من وظائف المعلم: أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره، أو يخبط عليه عقله، اقتداء بسيد البشر ﷺ، ولا يبث إليه الحقيقة إلا إذا علم أنه يستقل بفهمها. وقد قال علي رضي الله عنه، وأشار إلى صدره: إن هنا لعلوما جمة لو وجدت لها حملة! فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد. وهذا إذا كان يفهمه المتعلم، ولم يكن أهلاً للانتفاع به، فكيف فيما لا يفهمه؟.. ولذلك قيل: كلْ لكل عبد بمعيار عقله، وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه، وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَموالَكُم﴾ تنبيهاً على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى. وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق [١].

ويقول الغزالي أيضاً: إن المتعلم القاصر ينبغي أن يُلقى إليه الجلي اللائق به، ولا يذكر له: إن وراء هذا تدقيقاً، وهو يدخره عنه، فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ويوهم إليه البخل به عنه، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق!.. بل لا ينبغي أن يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات، وتعليم الأمانة في الطاعات التي هم بصددها، ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة النار، لما نطق به القرآن، ولا يحرك عليهم شبهة فإنه ربما تعلق الشبهة بقلبه، ويعسر عليه حلها، فيشقى ويهلك..» [٢].

والمقصود: أن المعلم طبيب يداوي القلوب والعقول، بما يناسبها، وليس كل دواء يصلح لكل داء.

---

(١) «الإحياء» جـ ١/ ٥٧، ٥٨.

(٢) «الإحياء» جـ ١/ ٥٨.

### ٩ - الاعتدال وعدم الإملال :

ومن المبادئ المرعية في التعليم والمقتبسة من هدى النبوة : الاقتصاد في التعليم، والاعتدال في قدر ما يلقى من الموعظة، والمعلومات، في زمانه، وفي نوعه حتى لا يؤدى الإكثار إلى الإملال .

روى البخاري بسنده عن أبي وائل قال : كان عبد الله ( يعني ابن مسعود ) يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل : ياأبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم؟ قال : أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملّكم . وإني أتخولكم ( أي : أتعهدكم ) بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا(١) .

وروى البخاري أيضاً عن عكرمة : أن ابن عباس قال : حدث الناس مرة في الجمعة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاثاً . ولا تمل الناس هذا القرآن، ولا ألفينك تأتي القوم وهم في حديث من أحاديثهم فتملهم . ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه (٢) .

وكان ابن مسعود يقول : إن للقلوب لنشاطاً وإقبالاً، وإن لها تولية وإدباراً، فحدثوا الناس ما أقبلوا عليكم (٣) .

وقال الحسن البصري : كان يقال : حدّث القوم ما أقبلوا عليك بوجوههم، فإذا التفتوا فاعلم أن لهم حاجات (٤) .

ومعنى هذا : أن على المعلم - كما على الداعية والمحدّث - أن يراعي الطاقة النفسية للناس، فإن من يستمع أو يتعلم وهو كاره لا يستفيد مما يتلقاه - فهو يسمع بأذنه ولا يعي بقلبه . وكما أن للإنسان طاقة بدنية محدودة يجب أن تراعى، فلا يحمل من الأثقال المادية ما لا يطيق . فكذلك طاقته النفسية .

وعلى هذا الأساس يجب أن توضع مناهج التعليم وتؤلف كتبه، وتحدد مقرراته بحيث يقبل المتعلمون على العلم وهم نشيطون راغبون .

---

( ١ ) متفق عليه من حديث ابن مسعود اللؤلؤ والمرجان ( ١٧٩٦ ) .

( ٢ ) « جمع الفوائد » جـ ١ حديث ٢٣٥ .

( ٣ ) و ( ٤ ) « سنن الدارمي » جـ ١ / ٩٨ باب : من كره أن يمل الناس .

ومن حسن الطريقة فى التعليم أن يدخل المعلم على درسه بعض المروحات عن النفس من الملح، أو الطرائف، أو الأشعار حتى لا تسأم النفوس وتمل القلوب، وكان النبى ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً.

وقد رويت عنه ألوان من الدعابة الحلوة التى تدخل على القلوب الأنس بلا إسفاف ولا إسراف (١).

وقال على: اجمعوا هذه القلوب وابتغوا لها طرائف الحكمة فإنها تمل، كما تمل الأبدان.

وعنه أيضاً: روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلب إذا أكره عمى.

وقال أبو خالد الوالى: كنا نجالس - أصحاب النبى ﷺ، فيتناشدون الأشعار ويتذكرون أيامهم فى الجاهلية.

وكان القاسم بن محمد - أحد فقهاء المدينة السبعة فى عصر التابعين - إذا أكثروا عليه من المسائل قال: إن لحديث العرب، وحديث الناس نصيباً من الحديث فلا تكثروا علينا من هذا.

وكان ابن شهاب الزهرى يحدث ثم يقول: هاتوا من أشعاركم، هاتوا من أحاديثكم، فإن الأذن مجاجة: والنفس حمضة.

وفى هذا اللون من ترويح الأنفس فائدتان:

الأولى: مطاردة السآمة، وإزالة آثار ما يصيب البدن من كلل، والنفس من ملل، نتيجة مواصلة الدأب والتكرار اليومى الرتيب. وهو ما أشار إليه الإمام على فيما ذكرناه من قوله رضى الله عنه. وفيه يقول الشاعر:

والنفس تسأم إن تطاول جدها     فاكشف سآمة جدها بمزاح

والثانية: تنشيط النفس لمواصلة السعى إلى الجد، ومعاناة البحث عن الحقيقة مهما تكن مشقة الطريق إليها، وفى هذا قال أبو الدرداء: إنى لأستجم نفسى بالشىء من اللهو ليكون أقوى لها على الحق.

---

(١) روت كتب السنة من ذلك أكثر من واقعة.

ولكن ينبغى هنا مراعاة أمرين:

الأول: ألا يكون فى هذه الملح والطرف تجاوز أو إسفاف، مما لا يليق بمجلس العلم وأهله، فمجلس العلم ليس مسرحاً أو ملهى.

الثانى: أن تكون بالقدر المناسب بحيث يكون الجد هو الأصل والقاعدة وهذه هى الاستثناء. فإن كل شيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده. حتى العبادة قد كره الغلو فيها، فكيف بالمباح وكيف باللهو منه؟

وفى هذا جاء عن على رضى الله عنه قوله: أعط الكلام من المزح بمقدار ما تعطى الطعام من الملح.

### ١٠ - استغلال المواقف العملية للتربية والتوجيه:

ومن المبادئ التربوية التى ورثتها لنا سنة نبينا ﷺ: استغلال المواقف الواقعية، والتصرفات العملية التى تقتضى موقفاً تعليمياً معيناً، وإلقاء توجيه تربوى خاص، ليأخذ المتعلمون منه درساً إيجابياً لا ينسى.

وذلك لارتباطه بالواقع المشاهد، وصلته بمناسبة لابسها الناس وعايشوها، فهنا ترسخ فى الذهن وتثبت فى القلب، ولا تحتاج إلى تطويل أو تكرار.

وهكذا كان الرسول العظيم، لا يدع فرصة من هذه الفرص التى يتيحها القدر للناس فى حياتهم - تمر دون أن يجعل منها درساً بليغاً، وموعظة مؤثرة كثيراً ما تدمع منها العيون وتوجل لها القلوب.

ومن منا يجهل موقفه يوم أهم قريشاً أمر المرأة المخزومية التى سرقت، وعز عليهم أن تنفذ فيها عقوبة القطع التى أمر الله بها فى كتابه للسارقة وللسارق (جزاء بما كسبا، نكالاً من الله)؟

ولجأوا إلى أسامة بن زيد حب رسول الله، وابن حبه يشفعونه فى هذا الأمر الخطير: أن يعفى المرأة من حد القطع، ويقبل منها أى غرامة أو عقوبة أخرى. ناسين أن العاطفة شيء، وإقامة حد الله شيء آخر. فكان لا بد من درس مبدئى يثبت معنى المساواة فى العقوبات، كما هى ثابتة فى كل التكاليف، ويزيل أوهام الفوارق الطبقية بين الناس: أشراف وعامة ويعلن فى قوة أن شرع الله يسود الجميع ويحكم الجميع، وكلمته هى العليا. وكل كلمة عداه هى السفلى.

هنا جاء الدرس التربوى فى حينه وفى موضعه، فسمعته الآذان، وفقهته العقول، ووعته القلوب: «أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة؟! إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»!

ومن نسى فلن ينسى موقفه ﷺ - يوم مات ابنه إبراهيم، واتفق أن كسفت الشمس فى نفس اليوم، وكانت مناسبة ليقول قائلون: أنها كسفت لموت ابن رسول الله، وكان مثل هذا الاعتقاد رائجاً فى الجاهلية: انكساف الشمس أو القمر لموت عظيم من العظماء. ولو كان ﷺ من أولئك الذين يبنون لأنفسهم، ولأسرهم عظمة زائفة عن طريق الدجل، والمبالغات لسكت على هذا القول، الذى يوافق ما كان معروفاً عند الناس، ولكنه انتهز الفرصة ليصحح المفاهيم، ويطارد الخرافة، ويقرر الحقيقة العلمية النافعة، وقال فى وضوح مؤمن، وفى إيمان واضح: «أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته».

وقدم يوماً إلى رسول الله ﷺ جماعة من عرب مضر، فقراء بدت عليهم الفاقة والحاجة، وتألم الرسول لما رآهم على هذه الحالة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ثم خطب يحث الناس على الصدقة على هؤلاء ولو بشق تمرة.

وهنا سبق بالفضل رجل من الأنصار، بعد أن أمسك الناس - وجاء بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت.. وكانت بداية طيبة، وأسوة حسنة قال جرير راوى الحديث: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ، يتهلل كأنه مذهبه.. (صحيفة منقشة بالذهب)..

وعندئذ كان المقام مناسباً للتنويه بمن يبدأ فى عمل خير يقتدى الناس به فيه.. فقال رسول الله - ﷺ -: «من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شىء، ومن سنّ فى الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من

أوزارهم شيء»(١). وبهذا يرتبط العلم بالحياة، ويتصل الدرس بالواقع، ولا يعيش المعلم مع الكتب وحدها، بعيداً عما تمر به الحياة من أحداث.

### ١١ - استخدام الوسائل المعينة:

ومن المبادئ التربوية الأصيلة في سنة الرسول المعلم: أن يستعين بكل وسيلة بصرية أو سمعية متاحة، مما يساعد على إيضاح الحقيقة المقصودة.

ومن المعروف أن البيئة لم تكن تساعد على توفير هذه الوسائل، والرسول ﷺ نفسه أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولكن الذى يهمنا هنا هو تقرير المبدأ والفكرة أولاً، وتطبيقها فى الحدود المتاحة ثانياً.

وهنا نجد بعض الأمثلة البينة للدلالة على ما نقول:

يروى ابن مسعود رضى الله عنه فيقول:

خط لنا رسول الله ﷺ، خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً» وخط عن يمينه وشماله ثم قال: «هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فترى فى هذا الحديث أن النبى - ﷺ - يفسر لأصحابه الوصية الأخيرة من الوصايا العشر فى سورة الأنعام، ولكنه لم يقتصر على تفسيرها بالكلام المجرد بل استعمل لذلك ما هو ميسور له وهو الرمل، يخط عليه بيده بدل اللوح، وهو هنا يرسم صراط الله المذكور فى الآية الكريمة فى صورة خط مستقيم ولهذا قال: هذا سبيل الله مستقيماً، ويرسم السبل الأخرى التى حذرت الآية من اتباعها فى صورة خطوط متعرجة عن يمين الخط الأوسط المستقيم وشماله، ثم يشير إليها قائلاً: «هذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه» ثم يختم هذا التوضيح العملى بقراءة الآية الكريمة، فتقع أعظم موقع فى نفس السامع المشاهد وعقله. فهنا اشتراك البصر مع السمع فى استيعاب معنى الآية، وفهم مراد الله تعالى منها.

---

(١) رواه مسلم فى الزكاة (١٠١٧) وابن ماجه فى المقدمة (٢٠٣) والترمذى فى العلم (٢٦٧٧) باختصار القصة.

وعن جابر رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ، مر بالسوق، والناس كنفتيه، (أى: عن جانبيه) فمر بجدى أسَكَّ، (أى: صغير الأذن) ميت، فتناوله بأذنه ثم قال: أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء. وما نصنع به؟ قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: والله لو كان حياً لكان عيباً فيه، لأنه أسك فكيف وهو ميت؟ فقال: فوالله للدنيا أهونُ على الله عز وجل من هذا عليكم [1].

فانظر يا أخى القارئ كيف بين النبى ﷺ، المفهوم الذى أراد إيصاله إلى أصحابه مستخدماً هذه الوسيلة العجيبة من الوسائل المعينة. إنها وسيلة لم يشترها، ولم يصنعها، ولم يتكلف أو يفتعل فى الاستعانة بها. إنها وسيلة يراها الناس، ويمرون بها كثيراً، ولكن النبى ﷺ، أراد أن يتخذ منها أداة لتوضيح قيمة الدنيا التى يتهافت الناس بل يقتتلون عليها. إن هذا الدرس فى تفاهة الدنيا عند الله -- بجوار الآخرة - لا يمكن أن يُمحى من الذهن أو يُنسى من الذاكرة لارتباطه بالجدى الأسك الميت، وبمسلك النبى ﷺ، وهو يأخذ بأذنه ويسألهم: أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ ويجيبون، ويسألهم حتى يقرر لهم الحقيقة المرادة في النهاية: «والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم».

وغير هذا كثير مما استخدمه النبى ﷺ، وسيلة إيضاح، أو وسيلة معينة على غرس القيمة الدينية، والخلقية، أو العقلية التى يحرص على تعليمها.

ومن الأساليب المعينة على الفهم والاستيعاب، المثبتة للمعنى المطلوب: أسلوب الإشارة الحسية التى يرتبط فيها المعقول بشيء ملموس.

وكان النبى ﷺ، كثيراً ما يستخدم هذا الأسلوب لتنبيه الغافل، وتثبيت المنتبه ومن أمثلة ذلك:

قوله فى الحديث الذى رواه مسلم وغيره: «التقوى ههنا» - وأشار إلى صدره ثلاث مرات. فهذه الإشارة إلى الصدر فى بيان حقيقة التقوى، ومحلها

---

(١) رواه مسلم فى الزهد والرقاق (٢٩٥٧) وأبو داود فى الطهارة (١٨٦).

أبلغ كثيراً من قوله: التقوى محلها القلب، فهذه كلمة قد تمر على الكثيرين دون أن يلقوا لها سمعاً، أو يلقون سمعاً ولا يحضرون مع السمع قلباً.

ومثله حديث جابر عند مسلم: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وأشار بأصبعيه: السبابة والوسطى وفرق بينهما».

فهذه الإشارة بأصبعيه في بيان قرب مبعثه من الساعة لها من الوقع في النفس غير ما يقوله: بعثت قرب الساعة.

وكذلك حديث البخارى وغيره: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما» من حديث سهل بن سعد.

فهذه الإشارة توضح المراد من الحديث الشريف بأكثر مما تعطيه عبارة معتادة مثل: كافل اليتيم قريب من الرسول في الجنة.

ومن ذلك حديثه لمعاذ بن جبل حين أوصاه بجملة وصايا ثم قال له: «ألا أدلك على ملاك ذلك كله»؟ قال: بلى. قال: «كف عليك هذا» وأشار إلى لسانه [1].

إن هذه الإشارة الحسية إلى اللسان تجعل معاذاً، وكل من حضر هذا القول لا ينسى أهمية اللسان، وآفاته التى تكب الناس في النار على مناخرهم.

وكل هذه الأمثلة بدت الإشارة فيها إلى جزء من كيان المعلم نفسه: صدراً، أو يداً، أو لساناً.

ومن ذلك ما رواه الشيخان عن سهل بن سعد، قال: مر رجل على النبى ﷺ، فقال لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذا؟ قال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حرى إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، فسكت رسول الله ﷺ، ثم مر رجل، فقال رسول الله ﷺ: ما رأيك في هذا، فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حرى إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا».

---

(١) الحديث رواه الترمذى في الإيمان (٢٦١٩) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)، وفي سنده كلام كثير، وهو من أحاديث الأربعين النووية.

## ١٢ - تخير أحسن الأساليب :

ومن أدب التعليم ومبادئه فى السنة النبوية : تخير أفضل الطرائق وأرفق الأساليب، وأقربها إلى عقل المتعلم وقلبه، وأحسنها وقعاً فى سمعه وبصره.

وذلك لتساعد المعلم على حسن توضيح ما يريد إعطاءه من العلم لتلاميذه، وحسن تثبيته فى أذهانهم وأنفسهم.

ومن دَرَس السنة، وعاش فى كتب الحديث، رأى من الأساليب التربوية، واستخدام الوسائل المعينة ما يحسب جمهور المشتغلين بالتربية أنه شيء غريب عن تراث الإسلام.

فقد يستخدم عليه الصلاة والسلام الطريقة الإلقائية فى خطبة العامة فى الجمع والعيدين ونحوها. فهذا ما يقتضيه المقام.

ولكنه مع هذا لا يدعها تمر خطبة القائية بحتة، بل يطعمها بعناصر تعليمية خاصة تشد الأبصار، وتجذب الانتباه وتدعو إلى التركيز.

وحسبنا أن نذكر هنا أشهر خطبه - ﷺ - وهى خطبة حجةالوداع التى ألقاها فى أكبر جمع حاشد عرفته جزيرة العرب فى تلك العصور فى يوم النحر بمنى.

فحين أراد أن يبين لهم حرمة الدماء، والأعراض، والأموال لم يسق هذا المبدأ الخطير مساقاً تقريرياً إلقائياً كما يفعل كثير من الخطباء فى خطبهم والزعماء فى بياناتهم.

وإنما بدأهم بالسؤال الذى يحرك الشوق ويثير الانتباه.

يروى أبو بكرة أنه ﷺ، قعد على بعيره وأمسك بخطام البعير ثم قال : «أى يوم هذا؟». فسكتنا، حتى ظننا أنه سيسميه سوى آسمه. فقال : «أليس يوم النحر؟» قلنا : بلى. قال : «فأى شهر هذا؟» فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير أسمه، فقال : «أليس بذى الحجة؟» قلنا : بلى. ثم سألهم عن البلد أيضاً سكتوا ثم بين لهم أنه البلد الحرام ثم قال : «فإن دماءكم، وأموالكم وأعراضكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا» (١).

---

(١) الحديث مشهور رواه الشيخان وغيرهما ورواه البخارى فى أكثر من موضع من صحيحه، انظر : الفتح جـ ١ / ١٦٨. متفق عليه من حديث أبى بكرة اللؤلؤ والمرجان (١٠٩٤).

قال القرطبى فى شرح مسلم: سؤاله - ﷺ - عن الثلاثة، وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار فهو مهم، وليقبلوا عليه بكليتهم، وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه، ولذلك قال بعد هذا: «فإن دماءكم» الخ... مبالغة فى بيان تحريم هذه الأشياء (١). ومناط التشبيه فى قوله: «كحرمة يومكم هذا» وما بعده: ظهوره عند السامعين، لأن اليوم والشهر والبلد كان ثابتاً فى نفوسهم، مقرراً عندهم بخلاف الدماء، والأموال، والأعراض، وكانوا فى الجاهلية يستبيحونها، فبين لهم أن تحريم دم المسلم، وماله، وعرضه، أعظم من تحريم البلد والشهر واليوم (٢).

والمقصود هنا أنه ﷺ، لم يسرد خطبته سرداً، ولم يلق بيانه إلقاء رتيبا يثير الملل، ويبعث على النوم، بل حرك بأسئلته العقول، وأشرك المخاطبين معه فاشرأبت إليه الأعناق، ورنت له الأبصار، وأنصتت له الآذان، وفى ختام خطبته يشهدهم على أدائه الأمانة وتبليغه الرسالة، بنفس هذا الأسلوب: «ألا هل بلغت؟».. فتجاوبت معه الأصوات من كل جانب: أن نعم، قال: «اللهم فاشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب».

ومن الأساليب الناجحة فى التأثير والإقناع: التشبيه وضرب الأمثال بحيث يظهر المعقول فى صورة المحسوس والغامض البعيد فى صورة الواضح القريب.

والدارس للسنة يجدها حافلة بالعديد من التشبيهات، والأمثال التى تمثل ذروة البلاغة البشرية وقمة الروعة الأدبية. والرسول ﷺ فى هذا يقتدى بالقرآن الكريم فى تشبيهاته وأمثاله.

وفى «الجامع الصغير» للسيوطى فقط نجد (٤٢) اثنين وأربعين مثلا، وكل واحد منها وكأنما هو معلم يشرح ويوضح ويقرب.

يكفى أن أذكر نماذج قليلة منها:

«مثل الذى يعلم الناس الخير وينسى نفسه، مثل الفتيلة: تضىء للناس وتحرق نفسها (٣)!

---

(١)، (٢) الفتح ١/١٦٨.

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير عن أبى برزة وهو ضعيف، ورواه الطبرانى عن جندب بإسناد حسن، كما قال الهيثمى فى المجمع (١/١٨٤/١٨٥).

« مثل المؤمن مثل النحلة : إن أكلت طيباً وإن وضعت طيبا ، وإن وقعت على عود لم تكسره » [١] .

« مثل المنافق كمثل الشاة العائرة ( المترددة المتحيرة ) بين الغنمين : تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة لا تدرى أيهما تتبع [٢] .

« إنما مَثَلى ومَثَلُ الناس كمثل رجل استوقَد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفَرَاشُ وهذه الدوابُّ التى تقع فى النار يقعنَ فيها ، فجعلَ الرجلُ يزَعُهنَّ ويغلبنَه فيقتَحمنَ فيها فأنا آخذ بحُجزِكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها » [٣] .

ولم يذكر السيوطى فى الجامع أمثالاً أخرى مشهورة منها ما فى الصحيحين « مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة » الحديث . ومنها : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلِى كمثل رجل بنى بيتاً فأتمه وأحسنه » . . الحديث . ولهذا سماه ( الجامع الصغير ) لأنه لم يقصد منه الاستيعاب .

ومن الأساليب المؤثرة فى الأنفس والعقول كذلك : أسلوب القصة ، ولذا عُنى بها القرآن ، وقص علينا من أنباء الرسل ، وأخبار المؤمنين وصراعهم مع أهل الكفر والطغيان ، ما يثبت الفؤاد ، ويدفع ريب المرتابين ، ويهدى الحائرين ، ويزيد الذين اهتدوا هدى .

وكذلك استخدم الرسول القصة فى تبيين قيم ومعانى معينة وتثبيتها مثل : بيان أثر الإخلاص فى نجاة الإنسان من المهالك كما فى قصة الثلاثة أصحاب الغار ، ومثل بيان أثر الشكر فى بقاء النعمة وكفر النعمة فى زوالها كقصة الأعمى والأبرص والأقرع ، ومثل بيان عاقبة الرحمة ولو كانت لحيوان أعجم مثل الكلب كما فى قصة الذى سقى كلباً يلهث من شدة العطش فشكر الله له ، فغفر له . إلى غير ذلك من القصص المنثورة فى كتب الأحاديث وما أجدرها أن تُجمع [٤] .

---

( ١ ) رواه أحمد ( ٢ / ١٩٩ ) عن عبد الله بن عمرو . وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح غير أبى سبرة وقد وثق فى المجمع ( ١ / ٢٩٥ ) .

( ٢ ) رواه أحمد ( ٢ / ٣٢ ) ومسلم فى صفات المنافقين ( ٢٧٨٤ ) والنسائى ( ٥٠٣٧ ) .

( ٣ ) متفق عليه من حديث أبى هريرة اللؤلؤ والمرجان ( ١٤٧٢ ) .

( ٤ ) حاول ذلك مشكورا منذ عدة سنوات الشيخ الصالح محمد خليل الخطيب وأعتقد أن كتابه نشر .

## ١٣ - إثارة الانتباه بالسؤال والحوار:

وما أكثر ما استخدم الرسول المعلم، الطريقة الاستنباطية لاستخراج الحقيقة العلمية المنشودة من أفواه المتعلمين أو على الأقل تفتيح أذهانهم لتلقيها بعد تشوق النفوس لها، وتطلع العقول إلى معرفتها. وذلك عن طريق طرح السؤال عليهم ليجيبوا عنه إن استطاعوا أو يسمعوا الإجابة الصحيحة منه ﷺ.

ذكر الإمام البخارى فى صحيحه باباً بعنوان «باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم» وأخرج فيه حديث عبد الله بن عمر: «أن النبى ﷺ قال: إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، (أى: لا فى الشتاء ولا الصيف)، وإنها مثل المسلم، حدثونى: ما هى؟ قال: فوقع الناس فى شجر البوادى. قال عبد الله: فوقع فى نفسى أنها النخلة. ثم قالوا: حدثنا ما هى يا رسول الله؟ قال: هى النخلة» (١).

فها هو عليه السلام لم يلق عليهم هذه الحقيقة إلقاء تقريرياً: أن المسلم مثل النخلة. بل أراد أن يستثير دفائن ما عندهم ويلفتهم إلى ملاحظة ما حولهم، ويشركهم معه فى البحث. وبهذا لا يصبح المتعلم مجرد جهاز تسجيل ينفعل ولا يفعل، ويتلقى ولا يفكر. بل هو كائن حى عاقل يبحث ويفكر ويحاور ويناقش ويخطىء ويصيب.

وذكر ابن كثير فى تفسيره حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله - ﷺ - : «أى الخلق أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا: الملائكة. قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟» قالوا: فالنبيون. قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم؟!» قالوا: نحن. قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟!». فقال رسول الله ﷺ: «ألا إن أعجب الخلق إلىَّ إيماناً لقوم يأتون من بعدكم، ويجدون صحفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيها» (٢).

---

(١) متفق عليه من حديث ابن عمر اللؤلؤ والمرجان (١٧٩٢).

(٢) عزاه ابن كثير إلى الحسن بن عرفة، ونقل عن أبى حاتم الرازى أن المغيرة بن قيس أحد رواته منكر الحديث، ولكن ذكر له شاهداً عن عمر مرفوعاً عند أبى يعلى، وابن مردويه، والحاكم وصححه مع أن فيه راوياً ضعيفاً، وروى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعاً. تفسير ابن كثير جـ ١ / ٤٢ ط الحلبى.

فلم يذكر لهم الرسول - ﷺ - ما يريد بيانه لهم إلا بعد هذا الحوار الممتع، وطرح السؤال، ومناقشة الأجوبة حتى إذا تشوقت النفوس إلى معرفة الحقيقة جاءت على لسانه ﷺ ناصعة جلية.

ومما كان يستخدمه ﷺ للتشويق وإثارة الانتباه: أن يسألهم عن معانى بعض الألفاظ المعروفة معانيها عندهم، فيجيبوه بما يعرفونه من معانيها المشتهرة بينهم. فإذا فعلوا بادر إلى تفسيرها لهم بإعطائها المدلول الجديد الذى يريده، وهو فى الغالب مدلول مجازى قد لا يلتفتون إليه، ولكنه عند النبى - ﷺ - أحق أن يفهم من اللفظ.

وذلك كقوله لأصحابه يوماً: «ما تعدون الصرعة فيكم؟» قالوا: الذى لا تصرعه الرجال. قال: «ليس ذلك، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب» (١).

ومثل ذلك قوله: «أتدرون من المفلس»؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة.. ويأتى قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار» (٢).

ونحو هذا أن يلقى إليهم عبارة يستنكر ظاهرها ليسألوا عن المراد منها، فيأتى الجواب مصححاً المفهوم الخاطىء لها، فيتمكن المعنى من النفس فضل تمكن.

وفى هذا جاء الحديث الصحيح المشهور: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً». وكانت هذه كلمة متداولة فى الجاهلية العربية أشبه بالمثل السائر، دلالة على الانتصار للعصبية، ودفاع كل امرئ عن قومه، على حق كانوا أو على باطل. ولأجل هذا حين قال النبى - ﷺ - هذه الكلمة وقفوا منها موقف الدهشة

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه عن ابن مسعود فى البر والصلة (٢٦٠٨)، وأبو داود فى الأدب (٤٧٧٩).

(٢) رواه مسلم فى البر والصلة (٢٥٨١)، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٢٠)، وغيرهما عن أبى هريرة - ترغيب ٤١١٢.

والاستغراب، فالإسلام قد جاء بالعدل المطلق، ولو على أنفسكم، أو الوالدين والأقربين ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا** ﴾ [ المائدة : ٨ ]، وبرئ من العصبية بكل ألوانها، فكيف يقر الرسول الذى جاء بالهدى ودين الحق، هذه الكلمة الجاهلية؟ ولا عجب أن بادر الصحابة رضى الله عنهم بالسؤال والاستفهام قائلين: يا رسول الله ﷺ ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟!

فقال ﷺ : « تمنعه من الظلم، فذلك نصر له » [١] .

فهذا تعديل أساسى فى مفهوم النصرة للأخ والقريب، فإن إعانته على الظلم، وتأييده فى الباطل، معناه: جره فى الدنيا إلى الكوارث وفى الآخرة إلى النار، أما منعه من الظلم فهو إبعاد له عن الشيطان، وتقريب له من الرحمن. وزحزحة له عن النار، وإدناء له من الجنة. ولهذا كان هذا هو النصر الحقيقى له.

ولكن هذا المعنى الكبير لو ألقى إليهم تقريراً ما استثار اليقظة الفكرية التى واجه بها الصحابة الكلمة المشهورة، وجعلتهم يعجبون من ظاهرها، وينكرونه، ويسألونه عن المراد حتى يفهموا ويقتنعوا.

ويدخل فى هذا الباب بعض العبارات التى كان يلقيها الرسول المعلم بصورة تشد الانتباه شداً كمثل قوله يوماً عند أصحابه: « والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! » هكذا بصيغة القسم، وبالتكرار الذى يفيد التأكيد أيضاً بضمير الغائب الذى لا يعود على مذكور أو أحد معروف. فالفعل المنفى حتماً لا يُعرف مَن فاعله. ولهذا قالت الصحابة حين سمعت هذه الجملة العجيبة المكررة: يا رسول الله لقد خاب وخسر! من هذا؟؟ فقال عليه صلوات الله وسلامه: « من لا يأمن جاره بوائقه » [٢] ألا ما أعظم الفرق بين تأثير هذه الجملة: « لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه » حين تذكر جملة تقريرية خبرية كالمعتاد، وبين تأثيرها حين ذكرت بالصورة التى ذكرها النبى عليه الصلاة والسلام.

---

( ١ ) رواه البخارى فى الإكراه ( ٦٩٥٢ )، الترمذى فى الفتن ( ٢٢٥٦ ) .

( ٢ ) نسبه المنذرى فى الترغيب إلى البخارى من حديث أبى شريح الكعبى، واستدرك عليه الحافظ فى الفتح أن الحديث فى البخارى بغير هذه الصيغة فليراجع، وقد رواه أحمد فى المسند ( ٢ / ٢٨٨ ) فى موضعين وليس فيه «لقد خاب وخسر» .



obeikandl.com

والمهم بعد ذلك كله: أن يكون المعلم مؤمناً بمهنته، محباً لرسالة العلم، راغباً فى الارتقاء بتلاميذه، شاعراً بأبوته لهم وبنوتهم له، حريصاً على أن يبلغ ما فى نفوسهم، وأن يبلغهم ما فى نفسه، متفنناً فى بيان ذلك بكل طريقة ميسورة، ولو بالكلمة بشرط أن تكون مبينة مشرقة.

وكذلك كان ﷺ، حريصاً علي أن يبين عما فى نفسه أبلغ الإبانة، وأن يُفهم عنه ما يريد، ولا يدع سامعه حتى يفهم عنه.

أعان على ذلك أسلوبه البليغ فى القول الذى بلغ قمة البيان البشرى، فى إصابه المعنى وحسن التعبير، وموافقة المقال للمقام. كما أعانه طريقته الحسنة فى الأداء التى تختلف من شخص لآخر ومن ظرف إلى ظرف.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: كان كلام رسول الله ﷺ، كلاماً فاصلاً يفهمه كل من يسمعه (١).

وعن أنس: أن النبى - ﷺ - كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه (٢).

وكان أصحابه الذين تلقوا عنه، واقتبسوا من مشكاته، يسيرون على هديه فى تعليم الخلق، وهدايتهم إلى الحق، والافتنان فى الأساليب التى تعينهم على الوفاء بما يقصدون، من إنارة الألباب وتزكية الأنفس.

وأكتفى بهذه الصورة الحية من صور التعليم الذكى أبدعها فكر الصحابى المفترى عليه أبى هريرة رضى الله عنه.

فعن أبى هريرة: أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها فقال: يا أهل السوق ما أعجزكم؟ قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله ﷺ يقسم وأنتم ههنا؟ ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا: وأين هو يا أبا هريرة؟ قال: فى المسجد فخرجوا سراعاً، ووقف أبو هريرة لهم حتى

---

(١) رواه أبو داود فى الأدب (٤٨٣٩).

(٢) رواه البخارى فى العلم (٩٥)، والترمذى فى الاستئذان (٢٧٢٤).

رجعـوا، فقـال لهـم: ما لكـم؟ فقـالوا: يا أبا هـريرة، قد أتينـا المســجد فدخلنا فيـه، فلم نر فيـه شــيئاً يقسم! فقـال لهم: وما رأيتم فى المســجد أحـداً؟ قـالـوا: بلى: رأينا قـومـاً يصــلون، وقـومـاً يَقْـرَؤون القــرآن، وقـومـاً يتـذاكـرون الحـلال والحـرام... فـقـال لهـم: ويحكـم! فـذاك ميـراث مـحـمـد عليـه الصـلاة والســلام [1].

فأكرم بمدرسة خرجت مثل هؤلاء العلماء المعلمين!

* * *

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط (١٤٥١) بإسناد حسن - ترغيب - حديث ١٣٨، وكذا قال الهيثمى فى «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٣) إلا أن العراقى فى تخريج الإحياء. قال: فى إسناده جهالة وانقطاع.



obeikandl.com

# آثَـــار وَثِـمَـــار

هذه التعاليم النبوية الهادية، التى عرضنا جملة وافرة منها حول العلم والتعلم والتعليم – ولا نزعم أننا استوعبنا كُلَّ ما جاء فيها – لم تكن مجردَ حبر على ورق، بل كانت لها آثارُها ونتائجُها على أرض الواقع الإسلامى، ولا عجب، فهى ليست محض كلام يقال، بل هى دينٌ يعتقد، ومنهاج يُتبع، وأوامر تُطاع، وتعليمات تنفذ، ودعوة تلبى.

وكان لهذه الدعوة إلى العلم، والإشادة به، والتنويه بأهله، والتحريض على طلبه،ثمرات جمة، وآثار واضحة فى الحياة الإسلامية، منها:

١ – أنا وجدنا الصحابة يحرصون أبلغ الحرص على التزود من العلم، والاغتراف من منهل النبوة، مجتهدين فى ذلك بكل الوسائل الميسورة لديهم. يقول عمر بن الخطاب: كنت أنا وجار لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد (يعنى: فى منطقة سكناهم) وهى من عوالى المدينة. وكنا نتناوب النزول على رسول الله – ﷺ – ينزل يوماً، وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك (١).

هكذا كانوا فى حياة النبى – ﷺ – وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام، كان يسأل بعضهم بعضاً، ويأخذ بعضهم عن بعض، ويرحل بعضهم إلى بعض، قاطعاً الفلوات، أو راكباً البحار، ولو من أجل حديث واحد، فيلقاه من مصدره المباشر، الذى سمعه من النبى – ﷺ – كما فعل جابر بن عبد الله الأنصارى وغيره.

وكذلك مضى التابعون من بعدهم على نهجهم. وروى الدارمى بسند صحيح عن بسر بن عبد الله قال: إن كنت لأركب إلى مصر من الأمصار فى الحديث الواحد لأسمعه (٢).

---

(١) البخارى فى العلم (٨٩).

(٢) سنن الدارمى ١/١١٤.

وعن أبى العالية قال: كنا نسمع الحديث عن الصحابة، فلا نرضى حتى نركب إليهم فنسمعه منهم (١).

وهكذا كانت سنة العلماء بعدهم: الاجتهاد فى حذف الوسائط أو تقليلها، والعلو بالإسناد، لأخذ العلم من مصدره الأول أو أقرب المصادر إليه، ما استطاعوا.

وقد ذكرنا فى حديثنا عن التعلم نماذج من رحلة علماء المسلمين فى طلب العلم ومعاناتهم فى تحقيقه ما أصبح مضرب الأمثال.

٢ - أصبحت مساجد المسلمين حيثما وجدت دوراً للعلم، ومدارس للتعليم، فما من مسجد أنشىء إلا أصبحت فيه حلقة أو أكثر، يجلس فيها طلبة العلم إلى شيوخهم فى علوم الدين، أو اللغة، أو الأدب، أو التاريخ، أو الإنسانية، أو غير ذلك مما يهم الناس فى دينهم أو دنياهم.

وهكذا كانت المساجد أو الجوامع الإسلامية «جامعات شعبية» مفتوحة الأبواب صباحاً ومساءً. وصيفاً وشتاء، لكل راغب في الاستفادة من مجالسها وحلقاتها، كبيراً وصغيراً رجلاً أو امرأة، حراً أو عبداً، أبيض أو أسود، غنياً أو فقيراً، ليس لهذه الجامعة رسوم ولا نفقات ولا قيود، إلا الرغبة فى العلم، والإصرار على التعليم والاستمرار فيه.

وقد تطورت هذه الجامعات الشعبية فيما بعد إلى جامعات علمية، لها أساتذتها وطلابها ورؤساؤها وأوقاتها ونظامها، كما فى جامعة القرويين فى فاس بالمغرب، وجامعة أو جامع الزيتونة فى تونس، وجامعة أو جامع الأزهر فى مصر. وتعد هذه أقدم الجامعات فى العالم كله. وقد ظلت هذه الجامعة محتفظة بخصيصتها الإسلامية. إنها لكل الناس، ليست محتكرة لجنس، ولا للون، ولا لطبقة، فلم يحرم منها الموالى ولا الفقراء ولا المكفوفون، ونحوهم من الفئات الضعيفة بالمجتمع.

---

(١) انظر: فتح البخارى جـ ١ ص ٢٠٢ ط الحلبى.

٣ – كان المسلمون هم أول من أنشأ المدارس النظامية للتعليم المنهجي، ولم يعْرف التاريخ قبل المسلمين « مدرسة » بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة اليوم. مثل المدرسة النظامية وغيرها من المدارس التي أسسها الأمراء والسلاطين، وأهل الخير من المسلمين في شتى العهود الإسلامية.

٤ – قامت حركة تأليف واسعة في شتى العلوم. بدأت أول الأمر بالعلوم الدينية من حديث، وتفسير، وفقه، وأصول، وآداب، وزهد، وعقائد، وغيرها من كل ما يشرح الدين، ويوضح حقائقه أو يرد أباطيل خصومه.

وكانت هناك علوم أخرى لخدمة هذه العلوم، كعلوم اللغة والآداب والتاريخ ونحوها، ولهذا سموها العلوم الآلية، لأنها وسائل ، والعلوم الدينية مقاصد.

ونشأت بعد ذلك علوم أخرى، جاءت نتيجة التلاقي الفكري الذي بدأ بالترجمة من تراث الأمم الأخرى، واختلاط المسلمين بغيرهم من حاملي الثقافات المختلفة، فظهرت كتب في الفلسفة، والطب، والفلك، والهندسة، والكيمياء والطبيعة، والنبات، والجغرافيا، والتصوف، والتربية وغيرها. وقد طور المسلمون ما نقلوه من هذه العلوم، وهذبوه وأضافوا إليه، وابتكروا علوماً جديدة، واكتشفوا حقائق لم تكن معروفة، وصححوا أوهاماً كانت شائعة، وسجلوا ذلك في كتبهم التي بلغت مبلغًا هائلاً، والتي أفنوا في تصنيفها أعمارهم، وإن ضاع – للأسف الشديد – أكثرها في الكوارث، والمحن التي أصابت الأمة الإسلامية على يد التتار، والصليبيين، والفرنجة في بغداد، والأندلس وغيرهما.

كانت العصور الوسطى عند الغربيين التي يسمونها « عصور الظلام » كانت بالنسبة للمسلمين عصور النور، والازدهار العلمي والحضاري.

كانت اللغة العربية هي اللغة الوحيدة في العالم في تلك القرون لتدوين العلم ونشره وتداوله.

كانت الجامعات الإسلامية في الأندلس، وصقلية، وغيرها هي مراكز العلم والتعليم الراقي في العالم، وكان طلاب العلم يفدون إليها من أنحاء أوربا، ليتتلمذوا على أساتذتها، ويقتبسوا من نورها.



obeikandi.com

كانت أسماء العلماء المسلمين أشهر الأسماء فى دنيا المعرفة والعلم، بل هى الأسماء الوحيدة التى يتحدث عنها أهل العلم فى المعاهد، والمجامع، والحلقات، مثل ابن رشد، والخوارزمى، ابن الهيثم، ابن حيان، الرازى، ابن سينا، الغزالى، البيرونى، الزهراوى، ابن النفيس، وغيرهم وغيرهم.

كانت المراجع العلمية الإسلامية هى المراجع العالمية فى تخصصاتها المختلفة، وظلت كذلك لعدة قرون، مثل «القانون» لابن سينا، و «الحاوى» للرازى، و«الكليات» لابن رشد، وكلها فى علم الطب. وكتاب الخوارزمى فى الجبر والمقابلة، وكتب ابن الهيثم فى البصريات. وغيرها.

لقد سبق العلماء والمفكرون والمسلمون الأصلاء إلى نقد منطق أرسطو الصورى القياسى، قبل أن ينتبه إلى ذلك فلاسفة الغرب بقرون، وكتب فى ذلك الإمام ابن تيمية كتابه الرائد المبتكر – بل كتابيه – فى نقض المنطق الأرسطى، الذى وصفه بأنه لا يحتاج إليه الذكى، ولا ينتفع به البليد.

٥ – قرر الفقهاء – على اختلاف مذاهبهم – فى ضوء الأدلة الشرعية جملة من الأحكام، يبدو بها مدى ما للعلم، وتعلمه، وتعليمه ونموه واستمراره من قيمة وأهمية فى نظر الشريعة الإسلامية.

من ذلك :

( أ ) أن نفقة طالب العلم واجبة على أبيه الموسر، وإن كان الطالب قادرا على كسب قوته بتجارة، أو احتراف، أو غير ذلك، لأن الاشتغال بها يقطعه عن التفرغ لطلب العلم، فوجبت نفقته على أبيه كما تجب عليه لأولاده الصغار.

(ب) أن المتفرغ لطلب العلم يجوز له أن يأخذ من الزكاة، وإن كان قويا على الكسب، على حين أن المتفرغ للعبادة ممن يقدر على الكسب لا يجوز له أن يأخذ منها، عملاً بحديث: «لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سَوِىّ» .

والفرق بينهما: أن العبادة لا تحتاج إلى تفرغ وانقطاع لها، ولا رهبانية فى الإسلام، بخلاف العلم الذى يحتاج إلى انقطاع له حتى يحسنه، كما أن عبادة المتعبد لنفسه، أما علم المتعلم فله وللمجتمع من حوله.

( جـ ) أن كتب العلم لأهلها من علماء وطلاب تعتبر من الحوائج الأصلية لهم، فلا تدخل قيمتها فى اعتبار الغنى الموجب للزكاة، ولا بد أن يكون النصاب المملوك فاضلاً عنها.

كما أنها تعتبر من تمام الكفاية للعالم أو لطالب العلم، فلا بد أن توفر له من النفقة أو من الزكاة إذا أعطى من الزكاة، شأنها شأن المسكن والأثاث والملبس وآلة الاحتراف للمحترف.

وإنما اعتبر علماؤنا كتب العلم من الحوائج الأصلية، لأن الحاجة الأصلية عندهم ما يدفع الهلاك عن الإنسان تحقيقاً أو تقديراً. والجهل عندهم بمنزلة الهلاك. أى هو موت أدبى.

ومن هنا قرروا أيضاً: أنه لا يلزمه بيع كتبه ليتمكن من أداء فريضة الحج، إذا لم يكن يملك من المال ما يكفيه لنفقات السفر والإقامة هناك كما أن الغارم - المدين - الذى يحكم بإفلاسه لمصلحة الدائنين، تترك له كتبه إذا كان من أهل العلم.

( د ) وما قرروه فى باب الزكاة كذلك: أن الأصل فى الزكاة ألا تنقل من إقليم إلى إقليم. ولكن فى حالات لاعتبارات معينة يجوز النقل، كما إذا نقلت لطالب علم محتاج.

كما اعتبر بعضهم طالب العلم داخلاً فى « سبيل الله » وبذلك اعتبروا طلب العلم ضرباً من الجهاد.

* * *

# خاتمة

لقد بينت لنا الدراسةُ السابقة مجموعة من الحقائق المهمة أبرزها :

١ - أن السنة المحمدية نبع سخي، ومصدر ثرى، للأمة الإسلامية، دائمُ العطاء، متجددُ النفع، وليس ذلك فى الناحية التشريعية فقط، كما يقال دائما : السنة هى المصدر الثانى للتشريع، بل هي مصدر أيضاً لإرشاد الفكر، وتوجيه السلوك، وبناء الحضارة الإنسانية على أقوى الدعائم.

ولذا تكون كل محاولة للنيل من السنة أو التشكيك فيها، ليست إلا محاولة لضرب بنيان الإسلام من قواعده، وتهديماً لمقومات الحياة الإسلامية الحقة، وينتهى إلى إنكار القرآن ذاته، إذ لا يفهم القرآن بدون السنة، لأنها هى البيان النظرى والعملى لكتاب الله، وقد كلف الله تعالى رسوله أن يبين للناس ما نزل إليهم. كما أن كل خدمة للسنة وتجلية لحقيقتها، هى فى النهاية خدمة للقرآن، والإسلام، والأمة الإسلامية بلا ريب.

٢ - أن العلم فى نظر القرآن والسنة ليس خصماً للدين، ولا ضداً للإيمان، ولم يعرف المجتمع الإسلامى ما عرفته مجتمعات أخرى من الصراع بين العلم والدين، ومن اعتبار العلم مقابلاً للإيمان. فالحقيقة أن العلم عندنا دين، والدينُ عندنا علم. والعلم فى حضارتنا دليل الإيمان، وإمام العمل، وباب السعادة فى الآخرة والأولى.

ولهذا قرر علماؤنا الكبار الاتصال بين الشريعة والحكمة، وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول.

٣ - أن الإسلام لا يضيق بالعلم التجريبى، بل يحترمه ويدعو إليه، ويصنع المناخ النفسى والفكرى الملائم لازدهاره. مثل : تكوين العقلية العلمية الموضوعية (التى ترفض اتباع الظن والهوى والتقليد . . الخ) وإشاعة التعلم والكتابة والقراءة، والحث على تعلم لغات الآخرين عند الحاجة، واستخدام أسلوب الإحصاء وأسلوب التخطيط لمواجهة احتمالات المستقبل. وإقرار مبدأ التجربة فى

شؤون الدنيا، والنزول عند رأى أهل الخبرة فى مجال خبرتهم واقتباس كل علم نافع من أهله. واحترام سنن الله تعالى فى الكون، والحملة على الأوهام والخرافات والمتاجرين بالكهانة والعرافة... الخ. وكل هذا أتاح للعقل أن يفكر، وللعالم أن يبحث، وللعلم أن يزدهر.

٤ – أن الإسلام – فى ضوء ما جاءت به السنة – لا يفصل بين العلم والأخلاق، فالعلم وإن كان مفضلاً فى ذاته، (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)، فهو يراد للعلم، والعلماء إنما يضيئون الحياة بالمعارف والأخلاق جميعاً. ومن هنا ركزت السنة على أخلاقيات العلم ومسئولية العلماء، حتى لا يكونوا كعلماء بنى إسرائيل الذين كانوا يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب!

٥ – أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، والعلم المفروض هنا يعنى الحد الأدنى الذى لا بد منه، سواء كان علم الدين، أم علم الدنيا، والحد الأدنى لعلم الدنيا يتمثل فى محو الأمية التى أصبح بقاؤها وانتشارها فى العالم الإسلامى، وصمة عار فى جبين الأمة الإسلامية يجب أن تمحى. وعلى علماء المسلمين أن يعلنوا وجوب التخلص شرعاً من هذا المنكر الذى وصم أمتنا بالتخلف والعجز، فى مواجهة أمم الحضارة. ولن تؤدى أمتنا رسالتها، وتثبت وجودها وأستاذيتها، كما أمر الله، إلا بتعلم أبنائها جميعاً. وما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب.

٦ – إن الإسلام – فى ضوء ما فصلته السنة – قد وضع مبادئ وأسسا للتعلم والتعليم سبق بها أفضل ما يباهى به عصرنا ومفكروه من قيم تربوية، فى جانب التعلم أو التعليم. مثل مبدأ استمرار التعلم أو طلب العلم من المهد إلى اللحد.. ومبدأ التخصص فى أحد العلوم.. ومبدأ التوقير للمعلم.. والرفق بالمتعلم.. والتدرج فى التعليم.. ومراعاة الفروق.. والإشفاق على المخطىء وتشجيع المحسن.. واستخدام الوسائل المعينة، وغير ذلك.

٧ – إن هذه التوجيهات وتلك التعاليم، قد آتت أكلها، فى تكوين الفرد المسلم، والمجتمع المسلم، ونشأ فى ظلالها العقلُ المسلم المتميز، الذى يجمع بين

العلم واليقين، فهو يؤمن بعالم الغيب، ويسخر بعلمه عالم الشهادة. وبهذا ازدهرت العلومُ الكونية كما ازدهرت العلوم الدينية، وقامت نهضة علمية، تتلمذ عليها العالم كله لعدة قرون، وتركت آثاراً لازال بعضُها مكنونا إلى اليوم يحتاج إلى من يحييه ويجلو الصدأ عنه.

فهذا هو ديننا، وهذا هو علمنا، والحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

* * *



obeikandl.com